obeikandl.com

obeikandl.com

شوقي.. أمير الشعراء

شوقي هو شاعر مصر والعروبة والإسلام والتاريخ جمعاء. ما ترك زاوية من زوايا الماضي أو الحاضر في كل هذه المجالات إلا أمها بروحه وناجاها بشاعريته أروع مناجاة ولد شوقي سنة ١٨٦٨، منحدرا من جد عربي، اختلطت به بعد ذلك فروع تركية وكردية وشركسية ويونانية، فهو مزاج لطيف من حضارة الشرق والشعر ولد بحي (الحنفي) بالقاهرة. والتحق بمكتب الشيخ صالح، ثم بالمدرسة الخديوية، ثم بمدرسة الحقوق (قسم الترجمة) ثم سافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق والأدب سنة ١٨٨٧، وعاد منها سنة ١٨٩١، ونفي إلى أسبانيا سنة ١٩١٥، وعاد سنة ١٩١٩ وأبوه على شوقي، الذي ورث عن أبيه مالا كثيرا بدده في سكرة الشباب، ويقول أمير الشعراء عن هذه الحكاية (ثم عاش بعمله، غير نادم ولا محروم، وكأنه رأي لي كما رأى لنفسه من قبل، أن لا أقتات من فضلات الموتي) وعندما مات أبواه، أخذته جدته لأمه تكفله، ودخلت به يوما على الخديو إسماعيل وكانت من معتوقاته – وهو في الثالثة من عمره وكان بصره لا ينزل عن السماء، فطلب الخديو بدرة من الذهب، ونثرها على البساط عند قدميه، فوقع الطفل على الذهب يجمعه ويلهو به فقال الخديو لجدته: اصنعي معه مثل هذا، فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض قالت السيدة الذكية: هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك فقال الخديو: جيئي به إلى متى شئت، فإني أعز من ينثر الذهب في مصر. وقد عاش شوقي ما عاش، يحلق في السماء بعينين رجراجتين لا تقران على قرار، حتى كان الشيخ على الليثي كلما رآه ذكر من قول المتنبي هذا المصراع:

محاجر مسك ركبت فوق زئبق

لم يسجل التاريخ للخديو توفيق شيئا من الإحسان في تاريخ هذا البلد، اللّهم إلا حسنة واحدة، هي أنه مهد التسوية الصالحة لشاعرية شوقي، فقد أوفده – بعد تخرجه في

قسم الترجمة بمدرسة الحقوق – في بعثة إلى باريس، وأمره أن يبقي هناك أربع سنوات حظر عليه أن يعود خلالها إلى مصر، وأمره أن يقضيها في النظر في آداب الغرب، وحياة الناس، والتنقل بين باريس ومونبلييه ولندن، هناك تفتحت عينا شوقي على ألوان من الجمال في الحياة والأدب والفن، فتفتق خياله، وتفتحت له آفاق جديدة، ما كانت لتتفتح له لو بقي في مصر، شاعرا ناشئًا يعيش في إسار القصر، وكل رسالته أن يرفع المدائح للأعتاب الخديوية، هذه حسنة توفيق اليتيمة أما الحسنة الثانية – غير المقصودة – فهي للإنجليز، حينما نفوه إلى الأندلس حيث قضي في ظلالها خمس سنوات، رأي فيها عوالم جديدة، وراجعته قصة الأندلس والمجد الذاهب فيها، وقصص ملوك الإسلام الأقدمين وأساطيرهم هناك، ومفاتن الشعر الأندلسي، بألوانه الزاهية وبحوره المفردة وأوزانه المتراقصة.. كل هذا لعب في شاعرية شوقي دورا جديدا وأضاف إلى قيثارته أوتارا حبيبة، ولشوقي ولدان، هما علي وحسين،وبنت واحدة، هي أمينة وقد عاش شوقي ٦٤ سنة، ولقي وجه ربه في أكتوبر سنة ١٩٣٢.

المصرية في شعره

كانت مصر، بكل ما يحفل به ماضيها، وما يجتازه حاضرها، وما يؤمل لمستقبلها، أقوي مادة للإلهام عند شوقي وملحمته الخالدة (كبار الحوادث في وادي النيل) التي ألقاها في المؤتمر الشرقي الدولي المنعقد في مدينة (جنيف) في سبتمبر سنة ١٨٩٤ كممثل للحكومة المصرية، من أروع الملاحم في تاريخ الشعر العربي جملة، فهي تروي قصة مصر بكل ما عبر بها من أحداث منذ عهد الفراعنة إلى ذلك الحين (١٨٩٤) رواية مفصلة جري فيها على روي واحد من الشعر في غير تكلف ولا افتعال، إلى أن وصل إلى نحو ثلاثمائة بيت وقد لج به هوي مصر، أكثر ما لج، إذ هو في منفاه بالأندلس، حيث كان شعره يذوب حنينا ويتحرق شوقا إلى مصر، ومن أجمل أبياته إذ هو هناك، هذا البيت:

وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي

وهو على شدة اعتداده بإسلامه، يري مصر دينا مع الدين، وأخشي أن أقول إنه يراها دينا قبل الدين، كما تشهد بذلك أبياته التي قالها حينما ثارت الفتنة بين المسلمين والأقباط في مصر عقب مصرع بطرس غالي:

تعـــالوا عـــسي نطـــوي الجفـــاء وعهـــده
وننبـــذ أســـباب الـــشقاق نواحيـــا
ألـــم تـــك مـــصر مهـــدنا ثـــم لحـــدنا
وبيـــنهما كانـــت لكـــل مغانيـــا
ألـــم تـــك مـــن قبـــل المـــسيح ابـــن مـــريم
فهـــلا تـــساقينا عـــلى حبـــه الهـــوي
وعـــلا فـــديناه ضـــفافا ووادیـــا
ومـــا زال مـــنكم أهـــل ود ورحمـــة
وفي المـــسلمين الخـــير مـــا زال باقيـــا

وقصيدته في النيل هي من خير مصرياته، وهي تربو على مائة وخمسين بيتا، تجري في أروع النغم وترسم أجمل الصور ويستهلها بقوله:

مـــن أي عهـــد في القـــري تتـــدفق
ويـــأي كـــف في المـــدائن تغـــدق
ومـــن الـــسماء نزلـــت أم فجـــرت مـــن
عليـــا الجنـــان جـــداولا تترقـــرق

وفيها يقول عن النخيل في لغة روحية مشرقة يبرر فيها تأليه الفراعنة له:

ديـــن الأوائـــل فيـــك ديـــن مـــروءة
لم لا يؤلـــه مـــن يقـــوت ويـــرزق
لـــو أن مخلوقـــا يؤلـــه، لم تكـــن
لـــسواك مرتبـــة الألوهـــة تخلـــق

ومع أن هذه القصيدة من أجل مدحه للنيل في تاريخ الأدب العربي، فإن من آيات العبقرية وجزالة الإلهام عند شوقي، أنه أنجزها كلها في ليلة واحدة.

حبه للدنيا

ورغم هذه الروح المتصوفة، فقد كان شوقي يعشق الدنيا، ويأخذ نصيبه منها تشهد بذلك خمرياته وغزلياته، ومن أجمل خمرياته، وصفه للجعة قائلًا:

حـــــف كأســـــها الحبـــــب
فهـــــي فـــــضة ذهـــــب
راحـــــة النفـــــوس وهـــــل
راحـــــة عنـــــدها تعـــــب
يـــــا نـــــديم خـــــف بهـــــا
لاكبـــــا بـــــك الطـــــرب
لا تقـــــل عواقبهـــــا
فالعواقـــــب الأدب

ثم في قوله في قصيدة (رمضان ولي).... وقد ترجمت جريدة (الطان) بعض أبيات هذه القصيدة واحتفت بها على صفحاتها:

رمـــــضان ولي، هاتهـــــا يـــــا ســـــاقي
مـــــشتاقة تـــــسعي إلى مـــــشتاق
مـــــا كـــــان أكثـــــره عـــــلى آلافهـــــا
وأقلـــــه في طاعـــــة الخـــــلاق

حمـــــراء أو صـــــفراء، إن كريمهـــــا
كالغيـــــد، كـــــل مليحـــــة بمـــــذاق

وهذا البيت الأخير يؤدي بنا إلى ناحية بارزة من حياة شوقي العاطفية، فهو لا يكرس قلبه للون واحد من الجمال، ولا يقصره على حب امرأة واحدة، حتى أن أحدا من

ثقاته لم يرو لنا حبا كبيرا في حياته ذلك أن شوقي كان يعبد الجمال بكل ألوانه، ويري لكل مليحة مذاقا مستملحا وهكذا تبدو لنا غزلياته معممة، وقد لا تكون فيها حرقة الشعراء العشاق، كناجي أو رامي، ولكن فيها طرافة في تصوير الحب كقوله:

وعنـــدي الهـــوي، موصـــوفه لا صـــفاته
إذا ســـألوني، مـــا الهـــوي، قلـــت مـــا بيـــا

وكقوله في معارضة (ياليل الصب):

مـــا بـــال العـــاذل يفـــتح لي
بـــاب الـــسلوان وأوصـــده
ويقـــول تكـــاد تجـــن بـــه
فـــأقول وأوشـــك أعبـــده
مـــولاي وروحـــي في يـــده
قـــد ضـــيعها ســـلمت يـــده
نـــاقوس القلـــب يـــدق لـــه
وحنايـــا الأضـــلع معبـــده

كل هذا يدلنا على مقدار حب شوقي للحياة، التي عاشها، وعاشها في ترفها وأبهتها ومتاعها الطويل العريض.

وطنيته :

ولد شوقي – على حد قوله- على باب إسماعيل، ونشأ في ظل القصر، ومدح أرباب القصر، وكان شاعر القصر ومع هذا القيد الذي فرض عليه منذ ولادته، فإنه كان يفلت منه في كثير من المواقف الوطنية، ويهتف مع الشعب وللشعب، كهذه

وقد التهبت الوطنية في قلبه، فانفجر يغني للشعب، في ثورة ١٩١٩، وكان قبل ذلك جاهر المستعمر بالعدوان، فنفاه المستعمر في ربوع الأندلس، فاشتعلت الجذوة، ثم اندلعت ألسنة اللهيب لتحرق الأرض تحت أقدام الاستعمار.

سمت الوطنية عنده يومئذ حتي تجاوزت كل قدسية، فهو يقول بعد عودته من المنفي:

ويـــا وطنـــي لقيتـــك بعـــد يـــأس
كـــأني قـــد لقيـــت بـــك الـــشبابا

إلى أن يقول:

ولـــو أني دعيـــت لكنـــت دينـــي
عليـــه أقابـــل الحـــتم المجابـــا
أديـــر إليـــك قبـــل البيـــت وجهـــي
إذا فهـــت الـــشهادة والمتابـــا

وهو- قبل ذلك- لا يترك حادث دنشواي المشئوم إلا بعد أن يسجل خزيه على الإنجليز بقوله:

كيـــف الأرامـــل فيـــك بعـــد رجالهـــا
وبـــأي حـــال أصـــبح الأيتـــام
عـــشرون بيتـــا أقفـــرت وانتابهـــا
بعـــد البـــشاشة وحـــشة وظـــلام
ياليـــت شـــعري، في الـــبروج حمـــائم
ام في الـــبروج منيـــة وحمـــام؟
نـــيرون: لـــو أدركـــت عهـــد كرومـــر
لعرفـــت كيـــف تنفـــذ الأحكـــام

ثم يمضي كرومر إلى حيث يمضي ويخرج مطاطئ الرأس... ويودعه شوقي أسوأ وداع، يقوله:

أيـــامكم أم عهـــد إســـماعيلا

وكأنهـــا قامـــت ، عـــروش قيـــاصر

وهو يقدس الجمال في كل ألوانه ، ويتسامى في نظرته إلى الجمال العاري الذي اتخذ من الشاطئ مسرحًا لإظهار فتنته :

هـــذي الجـــسوم العاريـــات هياكـــل
للحـــب بـــين النـــار والأنـــوار
أنـــا مـــا أثمـــت بنظـــرتي وتـــصوفي
في هـــــذه الألـــــوان والآثـــــار
فـــيم الطبيعـــة أن جحـــدت بناتهـــا
فـــيم الحيـــاة استـــسلمت لأســـار

شاعر الوطنية والنضال:

و«أبو شادي» وقد ارتقى بعلمه إلى أعلى الوظائف الطبية بالمدينة لم يسكن إلى الوظيفة ، ولم تهدأ عاطفته الوطنية ، فظل ينظم شعرًا يغضب حكام عصره ، فهو لا يغفر لحزب الوفد - برغم أنه كان وفديًا - أنه ضم إلى صفوفه عددًا من كبار الإقطاعيين - وهذا على سبيل المثال .

كما ظل ينظم شعرًا فيه النقمة على مجتمعه وسوء توزيع الثروة فيه ، واسمعه وهو يتحدث على لسان فلاح يقول لزوجته :

غلـــب الجـــوع فهـــاتي (المـــش) هـــاتي
لا تقـــولي اللحـــم أن أصـــبر أســـاتى
ســـــادتي أولى بـــــه مـــــذ نهبـــــوا
كـــل حـــق لي وعـــاثوا بحيـــاتي
لا تقـــولي الـــدود قـــد أفـــسده

إنـــما الـــدود ـ وأن يحقـــر ـ لـــذاتي
مـــــدحوني مـــــثلما قـــــد لعنـــــوا
قـــد تـــساوي المـــدح واللعـــن لـــذاتي

آلام الشاعر المهاجر:

ولم يجد «أبو شادي» بدًا ـ وقد ضاق به الحكام والمحكومون على السواء في ذلك العهد ـ من أن يهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليعمل هناك ، في المعاهد الخاصة بعلمه ، وبأدبه في الصحافة والإذاعة ، ولعله يجد ما كان يفتقر إليه من الأمان والاستقرار وبخاصة بعيد أن ماتت زوجته الحبيبة .

ولكنه ما لبث أن شعر بكيانه يتحطم بتأثير الغربة والحنين ، ومن محاربة بعض الحاقدين عليه هناك .

وأخيرًا انطفأت هذه الشعلة المتوهجة ، فمات «أبو شادي» غريبًا عن وطنه في ١٢ أبريل ١٩٥٥ ، تاركا وراءه ديوانًا مطبوعًا في «نيويورك» بعنوان «من السماء» ، وكتابًا آخر بعنوان «دراسات أدبية » وطائفة من الدواوين التي لم تطبع وهي: ايزيس ، الإنسان الجديد ، النيروز الحر ، من أناشيد الحياة .

عالميته :

ويتسع قلب شوقي للإنسانية جمعاء، وتتلفت شاعريته إلى كل ركن من أركان العالم، فهو يخلد عبقريات شيكسبير- وتولستوي وفيكتور هوجو وفيردي ونابليون وأرسطو وابن زيدون وهو يذرف الدموع على ضحايا الانقلاب العثماني، وضحايا زلزال طوكيو ويوكوهاما وعلي ضحايا الحروب والمظالم والطبيعة وشهداء الحرية في كل مكان.

obeikandl.com

شاعر النيل
حافظ إبراهيم

نشأ في حجر الفقر واليتم، فقد مات أبوه وخلفه لأعاصير الحياة وهو في الرابعة من عمره، فحملته أمه إلى بيت خاله، وهو الآخر مهندس متواضع ضيق الرزق يعمل في مصلحة التنظيم، فعالها...

وانتقلت الأسرة إلى طنطا، حيث تلقي حافظ علم الكتاتيب في طفولته. فما أن أدركه الصبا حتي نفر من هذا العلم، وتطلع إلى المطالعات الأدبية..

وضاق به خاله. وأحس حافظ بهذا الضيق، فترك له البيت، بعد أن كتب هذين البيتين :

ثقلت عليك مؤونتي إني أراها واهيه
فافرح، فإني ذاهب متوجه في داهيه

وهكذا- ومن خلال هذين البيتين- تلمح خفة الظل التي كانت من سمات حافظ طول حياته، حتي في أشد ساعات بؤسه.

وهاهو ذا يخرج من بيت خاله، صبيا هائما على وجهه في دروب مدينة السيد البدوي والبسمة الساخرة على شفتيه، إلى أن تقوده قدماه إلى مكتب محام يختاره له القدر، هو المرحوم محمد بك أبو شادي، الذي أصبح بعدئذ من أساطين حزب الوفد، وزعماء ثورة ١٩١٩، ونقيبا للمحامين. وهو أبو الشاعر الراحل الدكتور أحمد زكي أبو شادي، مؤسس جمعية (أبوللو) وأمينها العام.

ولم تكن المحاماة يومئذ مهنة تتطلب درجة علمية معينة، بل كانت تتخذ بالممارسة، وينبه فيها ذكر المحدث اللبق والخطيب الصناجة، مما لم يكن ينقص شاعرنا... هذا إلى أنه قد أفاد من صحبة أبي شادي الكثير، ومراقبة ما عنده من الكتب.

وهكذا عمل بالمحاماة حينا، وهو لا ينفك يقرأ في الأدب ويلتهم ما حوله من أمهات الكتب.

وكان مما قرأه فاستهواه، سيرة الشاعر الثائر، صاحب السيف والقلم، محمود سامي البارودي، فراوده حلم كبير، هو أن يحذو حذوه في مسيرة حياته، لعله يبلغ مبلغه يوما ما. فالتحق بالمدرسة الحربية، وتخرج فيها، وعمل بالشرطة طورا وبالجيش تارة، إلى أن نقلت فرقته إلى السودان.

ذهب إلى السودان، وهو يحمل عدة الشعر مستكملة في يده، بعد أن أفني الدواوين قراءة فمن البحتري إلى أبي نواس إلى مسلم بن الوليد إلى ابن الرومي إلى بشار بن برد إلى أبي تمام إلى المتنبي... منتهيا إلى البارودي.

وفي يده الأخرى طموحه إلى مكانة البارودي، لا في عالم القلم وحده، بل وفي عالم السيف كذلك. فما زال يتأمل ما حل بوادي النيل بشطريه من غدر الإنجليز، ويؤلب إخوانه الضباط الشبان على الاستعمار، ويقرأ عليهم ديوان الحماسة، وأمجاد العرب، وفتوحات الجيش المصري، حتي ألف منهم رهطا للضباط الأحرار، وجعل يبصرهم بما صار إليه حال أبناء وادي النيل على يد الاستعمار، وكيف قصرت أيديهم عن المجد، وكيف أن الإنجليز قد نصبوا أنفسهم سادة على جيش مصر، وجعلوا رتبه الكبيرة وقفا على أنفسهم وعلي عملائهم من غير المصريين، أما الضباط المصريين، فليس لهم إلا الرتب الدنيا والرواتب المهينة .

وهكذا شبت الثورة في السودان. وما كان أشبهها بثورة عرابي، وبثورتنا المعاصرة (ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢).

وألقي القبض على الضباط الأحرار، ومنهم شاعرنا، وسيقوا إلى المحاكمة، لولا أن سيقت الشفاعات، فاكتفي الحاكمون المتجبرون بإحالتهم إلى الاستيداع.

وعاد حافظ إلى مصر مهدم النفس، مكسور الجناح، وراتب الاستيداع- أربعة جنيهات- لا يشبعه من جوع.

شعره في الغربة:

وهنا... نقف وقفة قصيرة نطل منها على شعر حافظ في غربته في السودان، قبل أن نستطرد في رواية بقية القصة.

ها هو إذا، في قصيدة يبعث بها إلى صديقه محمد (بك) بيرم في القاهرة، يرسم صورته لحياته القاتمة في السودان، قائلًا:

نزحت من الديار أروم رزقي ... وأضرب في المهامة والتخوم
وما غادرت في السودان فقرا ... ولم أصبغ بتربته أديمي
وهأنا بين أنياب المنايا ... وتحت براثن الخطب الجسيم
ولولا سورة للمجد عندي ... قنعت بعيشتي قنع الظليم
أيا ابن الاكرمين أبا وجد ... ويا ابن عضادة الدين القويم
أتيتك والخطوب تزف رحلي ... ولي حال أرق من السديم
فلاتخلق، فديت، أديم وجهي ... ولا تقطع مواصلة الحميم

وهكذا كان يحس أنه هناك في غياهة سجن، سجانوه هم المستعمرون، فهو يهفو، أكثر ما يهفو، إلى كلمات المحبين في القاهرة، تأتيه كالنسمات الباردة لتخفف عنه لفح الجنوب. وكان الأستاذ الإمام محمد عبده من محبيه، وقد كتب إليه أكثر من مرة يتشفع به عند ولاة الأمور ليعود إلى جوه الروحي في القاهرة.

وإني لمكتف بأن أضع أمام القارئ فذلكة من إحدى رسالاته في هذا الصدد إلى الأستاذ الإمام، يقول فيها:

(كتابي إلى سيدي وأنا من وعده بين الجنة والسلسبيل، ومن تيهي به فوق الثرة والإكليل، وقد تعجلت الأمور وتسلفت الحبور، وقطعت ما بيني وبين الغرائب:

وبشرت أهلي بالذي قد سمعته ... فما محتني إلا ليال قلائل
وقلت لهم: للشيخ فينا مشيئة ... فليس لنا من دهرنا ما ننازل

و(لأمر ما، لم يستطع (الشيخ) أن يحقق أمل حافظ، حتى كانت الثورة التي عاد حافظ بعدها إلى مصر مكسور الجناح، لا يسد راتبه من الاستيداع رمقه.

شوقي وحافظ

وألقي حافظ بالسيف جانبا، وشرع القلم. ولكن الطموح كان لايزال في يده الأخري.

كان شوقي يومئذ شاعر الأمير... فلماذا لا ينازعه هذا المكان، ويكون هو شاعر الأمير؟

وهنا، أبدأ لك القصة من آخرها، لأعود بك إلى أولها.

كانت مجالس الأدب في الجيل الذاهب لا تذكر اسم حافظ إلا مقترنا باسم شوقي، حتي لكأنهما توأم.

وكان شوقي- في أعماقه على الأقل- لا يطرب لسماع اسم حافظ مقترنا باسمه، فقد كان يحس في قرارة نفسه أن الشوط بينهما بعيد.

ولعله أسر بهذا لبعض خاصته، فنقل القول إلى حافظ فساءه، فصاح يقول:

- بأه يا عالم... شوقي يقول كده، والناس بقي لها ثلاثين سنة تقول (شوقي وحافظ)... زي ما تقول (سميط وجبنه)؟

وقد أشار كثير من مؤرخي الأدب إلى ما كان بين شاعري العصر من إشارات عابرة. ولكن أحدا منهم لم يحاول أن يتعمق إلى جذور الحقيقة، التي تستأهل دراسة أدبية طويلة عريضة، أحاول أن ألخصها في هذه السطور:

بدأ حافظ حياته الأدبية يقلد شاعر الجيل الأسبق، رب السيف والقلم، محمود سامي البارودي.

وقد أمعن في تقليده حتى شاء أن يكون خليفة له في كل شيء، حتى رئاسة الوزارة.

ولكن حياة حافظ العسكرية بكرت في الأفول، فجفاه هذا الأمل، ولا سيما بعد أن عرف هزيمة العرابيين ونهاية البارودي الحزينة.

وكان نجم شوقي قد تألق، فراح حافظ يرسم لنفسه مسيرة جديدة غير مسيرة البارودي، هي مسيرة شوقي، فسار على غراره. وقلده في أغراضه، وحاول أن يقتحم عليه أجواءه.

كان شوقي شاعر القصر المقرب إلى عزيز مصر، فتمني حافظ لو أنه صرع شوقي في هذه الحلبة، وانتزع منه هذا اللقب، فراح يمتدح الخديو، ويهنئه بالأعياد والمواسم، ويدعو له ولولي عهده عبد المنعم.

ولكن كل ذلك لم يبلغه أملا..

بيد أنه بدلا من أن يستريح ويريح أو يتواضع فيما يأمل راح يحلم بأن يبلغ شأوا أعظم من شأو شوقي.. أن يصبح شاعر الخليفة في الآستانة... والخليفة هو يومئذ سيد عزيز مصر.

وراح يتوجه إلى الخليفة بالقصائد الطوال.

غير أنه أخفق في هذا الحلم أيضا. ومن ثم ارتد على عقبيه، وتواضع كل التواضع، وانطوي في محيط ضيق يمدح الوزراء والسراة والأعيان.

وكان البؤس قد حط عليه بعد خروجه من الجيش، إذ كان معاشه لا يزيد على أربعة جنيهات، فوصله شوقي وحدب عليه، وسعي له عند داود بركات، رئيس تحرير الأهرام، ليجعله محررًا عنده فلم يفلح ، فشفع له عند القصر، فجعل له راتبا ظل يصرف له حتي نهاية حياته.

ومن هنا لان ناب حافظ مع القصر طول حياته، فامتدح فؤادا كما امتدح حسينا كما امتدح عباسا من قبل.

ومن هنا أيضًا، لان ناب حافظ مع شوقي، فكان يعترف له بالإمارة جهرًا، وإن كان يحفظ عليه في سره.

أما اعترافه بالإمارة، فشواهده كثيرة، منها قوله في مدحه للخديو عباس:

لم يبـــق (أحمـــد) مـــن قـــول أحاولـــه

في مـــدح ذاتـــك، فاعـــذرني ولا تعـــب

وقوله في مدحة أخرى لعباس أيضًا:

لم أخـــش مـــن أحـــد في الـــشعر يغلبنـــي
إلا فتـــى مـــا لـــه في الـــسبق إلاه
ذاك الـــذي حكمـــت فينـــا يراعتـــه
وأكـــرم الله والعبـــاس مثـــواه

وقد درج حافظ على هذه السياسة حتي لا تكاد مدحة واحدة من مدائحه الخديوية أو السلطانية أو الملكية تخلو من إشادة بشوقي.

وله في شوقي- بعيدا عن القصر- مدائح أخري، أشهرها وأبهرها وقفته يوم مبايعة شوقي بإمارة الشعر، يلقي السلاح ويعترف الاعتراف الأخير:

أمـــير القـــوافي قـــد أتيـــت مبايعـــا
وهـــذي وفـــود الـــشرق قـــد بايعـــت معـــي

وهناك أيضًا حقيقة نفسية نبهني إليها أخي الشاعر أحمد رامي- وكان صديقا لكليهما- هي أن شوقي كان ينفس على حافظ شيئًا واحدًا، ذلك أن شوقي كان يعجز عن إلقاء قصائده فيعهد بهذه المهمة إلى غيره.

أما حافظ، فكان يلقي قصائده بنفسه من فوق أعواد المنابر إلقاء تمثيليا يأخذ بمجامع الألباب وينتزع من الجماهير أقصي درجات التصفيق والإعجاب.

كما أن حافظًا كان يملأ المجالس بهجة ويستأثر بأسماع الحاضرين، على حين كان شوقي خاملا في مجالسه، حتي لكأنه عيي اللسان!

وقبل أن أترك شوقي وحافظ، أقول إن حافظا قد حاول أن يحلق في أجواء شوقي، فكبا كثيرًا، وكانت أكبر عثراته مدائحه لملوك الإنجليز.

كما حاول أن يحذو حذوه في رثاء أعلام الغرب كتولستوي وغيره، وفي الإشادة

بالأحداث العربية القديمة والعالمية الحديثة ولكنه لم يصل إلى شيء من سماء شوقي في هذه الأجواء.

فلما تحول إلى الأحداث المصرية الجليلة، أبدع وأجاد، وصح أن يقترب اسمه من اسم أمير الشعراء.

شاعر النيل

لم يولد حافظ في بيت على سطح الأرض .. وإنما ولد في عائمة على وجه النيل ببلدة ديروط، بصعيد مصر، وكان مولده في يوم مجهول، قدر الأطباء - بعد سنوات طويلة - أنه قد يكون يوم ٤ فبراير سنة١٨٧٢ . ولعل ارتباط مولده بالنيل كان من الأسباب التي دعت إلى تلقيبه بشاعر النيل .ولعل منها أيضا أنه عاشر النيل على طول امتداده في مصر والسودان، وهام بهما، وتغني بأحداثهما واستثار الهمم - أحيانا بقسوة بالغة - لتصحو من غفوتها وتأخذ مكانها في الحياة.

مرثية شوقي

وكانت وفاة حافظ في يوم ٢١ يوليه سنة ١٩٣٢...

وحسبه من الخلود، مرثية شوقي التي ودعه بها ومنها:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي ... يا منصف الموتي من الأحياء

لكن سبقت، وكل طول سلامة ... قدر وكل منية بقضاء

الحق نادي فاستجبت ولم تزل ... بالحق تحفل عند كل نداء

ووددت لو أني فداك من الردي ... والكاذبون المرجفون فدائي

العقاد شاعرًا

كان العقاد يرى- ورأيه الحق- أن التجديد يجب أن يكون مقيدًا بقيود الفن، لأن الفن في ذاته قيد، وكان يضرب الأمثال في ذلك بقوله: إن المشي أسهل من الرقص، ولكن الرقص دون المشي هو الفن.. فلا فن بغير قيد، ومن القيد يستمد الإحساس بالجمال.

*****

"الرقة العاطفية" تعبير من ابتكار العقاد، كتبه لأول مرة – ولعلها آخر مرة أيضًا – في مقدمته لكتابي عن الشاعر ناجي، وعنوانه : "ناجي حياته وشعره" فقد وصف العقاد ناجي في هذه المقدمة بأنه : شاعر الرقة العاطفية.

وفات العقاد أن يذكر أن كل شاعر أصيل، لابد أن يكون في شعره نصيب للرقة العاطفية.

وفاته كذلك أنه هو نفسه قد وقع في إسار الرقة العاطفية دون أن يفطن إليها، في أكثر من فترة من فترات حياته، ولا سيما فترة الحب الأول، ثم فترة حبه لسارة، قبل أن تدركه محنة الشك فيها.

هذه أبيات له تسيل عذوبة، عنوانها "غيرة طفلة" :

مـــــا كـــــان أملـــــح طفلـــــة
مـــــن غـــــير شيء تخجـــــل
ضـــــاحكتها فتمايلـــــت
وشـــــعورها تنهـــــدل
ورجـــــوت منهـــــا قبلـــــة
فأبـــــت كمـــــن يتـــــدلل
وتغنجـــــت وهـــــي تـــــصدني

حينًـــــا، وحينًـــــا تقبـــــل
فرفعـــــت مـــــرآة لهـــــا
فتطلعـــــت تتأمـــــل
قلـــــت انظـــــري في وجههـــــا
أفأنـــــت أم هـــــي أجمـــــل؟

قالت وفيها غضبة :

أنا بالملاحة أمثل!

ألا يخيل لك أيها القارئ، بعد أن تقرأ هذه القصيدة، وإذا لم أقل لك إنها من نظم العقاد، إنها من نظم واحد من الشعراء الظرفاء أصحاب الصور اللاهية السهلة الممتنعة، كالبهاء زهير والشاب الظريف وأضرابهما.

ثم ألا تلمح في زيدة القصيدة، أنها تقرب بين شوقي والعقاد – على اتساع مسافة الخلف بين مدرستيهما ومذهبيهما في الشعر – عندما تذكر أن شوقي قد لخص لفتة الاستجابة بعد الغيرة في بيت من قصيدته في "بكفيا".

يقول فيه عن الأغر الأكحل :

وصرفـــــت تلعـــــابي إلى أترابـــــه
وزعمـــــتهن لبـــــانتي، فأغرتـــــه

ثم هذه القصيدة، "كأس على ذكري" التي يستهلها العقاد بقوله :

يا نديم الصبرات .. أقبل الليل فهات
واقتل الهم بكأس سميت كأس الحياة

*****

هاتهـــا واذكـــر حبيـــب الـــنفس يـــا خـــير ثقـــاتي
ودع التلمـــــيح واجهـــــر باســـــمه دون تقـــــاة
أتـــــرى نحـــــرم حتـــــى ذكـــــره في الخلـــــوات؟
صـــفه لـــي صـــفه ومـــا كـــان بمجهـــول الـــصفات
أتـــــرى ألبـــــق منـــــه باصـــــطياد المهجـــــات؟
أتـــــرى أملـــــح مـــــن خطرتـــــه في الخطـــــرات؟
أتـــــرى أصـــــبح مـــــن خديـــــه بـــــين الوجنـــــات؟
ذهبـــي الـــشعر ســـاجي الطـــرف حلـــو اللفتـــات
وحيـــــي لا يحييـــــك بغـــــير البـــــسمات
جاهـــل بالحـــب أشـــكوه ولا يـــدري شـــكاتي
وغريـــــر القلـــــب لا يفهـــــم معنـــــى نظـــــراتي

أترى كيف تسيل الرقة العاطفية من كل بيت من هذه الأبيات؟

ثم أترى كيف يلتقي به شاعر النشوة، على محمود طه، في أحد أبيات هذه القصيدة، لقاء الكلمة بالكلمة، حين يقول العقاد، وهو الأسبق:

ذهبي الشعر ساجي الطرف حلو اللفتات

يقول بعده على محمود طه في قصيدة الجندول:

ذهبي الشعر شرقي السمات
ساحر الأعطاف حلو اللفتات

ثم قصيدة "موت الحب" التي يقول فيها العقاد :

ولـــــد الحـــــب لنـــــا ... وافرحتـــــاه
وقـــــضى في مهـــــده ... وا أســـــفاه
مـــــات لم يـــــدرج ولم يلعـــــب ولم

يـــــشهد الـــــدنيا ولم يعـــــرف أبـــــاه

ألا تلتقي أنفاس ناجي بأنفاس العقاد – وهو الأسبق – في هذه الرقة العاطفية؟

حتى المطلع ... في صورته وجرسه ... ألا يذكرك بمطلع "الأطلال" لناجي إذ يقول :

يـــــا فـــــؤادي، رحـــــم الله الهـــــوى
كـــــان صرحًـــــا مـــــن خيـــــال فهـــــوى

أحسبني أغريتك بالإيغال في شعر العقاد. بعد أن شددتك إليه، بجانب الرقة العاطفية منه.

على أن هذه الرقة العاطفية، التي تضع إبهامها على كل قصيدة من قصائد شاعر كناجي أو رامي أو البهاء زهير أو عمر بن أبي ربيعة، لا تضع إبهامها على الكثير من شعر العقاد، الشاعر الذي عاش أكثر حياته – إلا في فترات الحب منها – يفكر بقلبه ويحس بعقله.

وهذا هو سر إيمان العقاد بالشعر، وبتطور الشعر، فهو لا يستمرئ قول الكاتب الإنجليزي توماس بيكوك في رسالته عن الشعر، إذ يقول :

"الشاعر في عصرنا هذا هو نصف همجي يعيش في عصر المدنية، لأنه يقيم في الزمن الخالي، ويرجع بخواطره وأفكاره وخوالجه وسوانحه إلى الأطوار الهمجية والعادات المهجورة والأساطير الأولى، ويسير بذهنه كالسرطان زحفًا إلى الوراء..."

لا يستمرئ العقاد هذا الرأي الذي ينادي برجعية الشعر، ويؤثر عليه قول فيكتور هوجو في كتابه عن شكسبير إذ يقول :

"ينادي كثير من الناس في أيامنا هذه – ولا سيما المضاربون وفقهاء القانون – أن الشعر قد أدبر زمانه. فما أغرب هذا القول! ... الشعر أدبر زمانه؟ لكأن هؤلاء القوم يقولون إن الورد لم ينبت بعد، وأن الربيع قد أصعد آخر أنفاسه، وأن الشمس كفت عن الشروق، وأنك تجول في مروج الأرض فلا تصادف عندها فراشة طائرة، وأن القمر لا

ينظر له ضياء بعد اليوم، والبلبل لا يغرد، والأسد لا يزمجر، والنسر لا يحوم في الفضاء، وأن تلال الألب والبرانس قد اندكت، وخلا وجه الأرض من الكواعب الفواتن والأيفاع الحسان...

وإذا كانت بواعث الشعر عند ناجي وأضرابه هي الحب، والحب وحده، فإن بواعثه عند العقاد واسعة المدى إلى حد يكاد يلمس اللانهاية، فكل أمر من أمور الحياة، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وكل وجه من وجوه بواعث الموت، وما بعد الموت من آخرة، هي للشعر عن العقاد.

وهذا ما يعنيه المازني حين يقول عن صاحبه :

"إني اطلعت من شعر العقاد على نواح كانت محجوبة عن عيني، وإني وجدت فيه التعبير عما كنت أحسه ولا أكاد أعرف كنهه، أو ما أدرك ولا أقوى على العبارة عنه، وإني زدت للحياة فهما، وبها شعورًا وعلمًا".

وبهذا الإلمام الواسع والبواعث الضخمة جني العقاد على صاحبه المازني، الذي أحس بقصور مجالات شعره أمام العقاد، فهجر الشعر قائلا: (وانتهيت إلى أنه لا خير فيما قرضت من الشعر، وإن الأدب المصري لا يزيد به ولا ينقصه إذا فقده، فكففت عن نظم الشعر، ونفضت يدي من القريض)

الماضي... بأساطيره و(حواديته) البعيدة والقريبة، يستهوي العقاد أيما استهواء، ويراه من بواعث الشاعر عنده، نظما وترجمة فهو يري مادة للاستيحاء في أسطورة (أكاروس) اليونانية التي تروي قصة (ديدالوس)... البطل الذي كانوا يضربون به المثل في المقدرة الخارقة في الصناعة وحسن الحيلة في تذليل المصاعب والخروج من المآزق،

لا شك في أن العقاد حينما عارض نونية ابن الرومي التي مدح بها الصقر، بقصيدته (الحب الأول) صعد إلى قمة ابن الرومي، وتجاوزه في الرقة في كثير من الأبيات، ومنها:

يـــا مـــن يـــراني غريقـــا في محبتـــه
وجـــدا، ويـــسألني هـــل أنـــت غـــصان؟
واضـــيعة الحـــب، أبديـــه وأكتمـــه

ومن عنيت به عن ذاك غفلان
لي في مديحك أشعار أضن بها
عن امرئ فخره عرش وإيوان
ما الحسن ذنبا، فما للحب تحسبه
ذنبا من الناس لا يمحوه غفران؟
هما شقيقان، فارفق أن تحيلهما
ضدين، بينهما نأي وهجران
من علم الناس أن الحب مأثمة
حتي كأن ليس غير البغض إحسان

الماضي،برجاله وأمجاده، كعمود فرعون وأنس الوجود وهيكل إدفو وتمثال رمسيس وهيكل الكرنك وأطلال بعلبك، وشكسبير والمعري وكولمب.... كل هذا يقف مواقف شامخة في شعر العقاد، ولا سيما قصيدته (كولمب في الأوقيانوس) التي تعد من أجمل نماذج الشعر المعاصر، إذ يشبه كولمب، كأول رجل يطأ الدنيا الجديدة، بآدم، أول رجل وطأ دنيانا القديمة.. يقول:

من لكولمب... لا السماوات تهديه
... ولا النور في دجاه بنور
لو نعيب الغراب يسمع، لاعتد
نعيب الغراب صوت يشير
تظهر الشمس كل يوم، ولا يأذن
.... للأرض حاجب بالظهور

أما قصيدته في أبي العلاء، فهي جزء من نفسه، وبعض من فلسفته، فقد عاش العقاد عزبا لم يتزوج، آخذا بقول أبي العلاء:

هذا جناه أبي علي

وما جنيت على أحد

ويقوله:

وإذا أردتم بالبنين كرامة
فالحزم أجمع تركهم في الأظهر

ويتحدث العقاد عن فلسفة أبي العلاء في (ترك البنين في الأظهر) فيقول (فهو والد رؤوف، صد أبناءه عن الحياة رحمة بهم، فيالها من رحمة لا يعرفها له أبناؤه، ومتي كان الأبناء يعرفون البر للآباء؟) ثم يتصور العقاد أبناء لأبي العلاء، في عالم الغيب، يتوسل إلى أبيه أن يريه الحياة، وهو يذوده عنها وينصح له بالبقاء في عالم العدم.. يقول هذا الابن الغيبي لأبيه، في قصيدة مثلثة الشطرات مجددة الشكل:

يا أبي طال في الظلام قعودي
فمتي أنت مخرجي اللوجود
طال شوقي إليه فاحلل قيودي
يا أبي طال في الظلام قعودي
ليس يقوي عليه طفل ضعيف
فأجرني من ظله المسدود

ويمضي الابن الغيبي في مطالبة أبيه بالإفراج عنه حتي يري الدنيا ومفاتنها... إلى أن ينتهي، فيظاهره أبوه قائلا:

ولدي، إنني أبوك الرحيم
أنا بالعيش يا بني عليم
لا تصدق مقالة من بعيد
أن غنم الحياة من لم يجده
لم يمتع به، ولم يفتقده
فاغتنم ريح شرها المفقود

شرهـــا يـــا بنـــي سر ثقيـــل
خيرهـــا يـــا بنـــي خـــير قليـــل
أهلهـــا يـــا بنـــي أهـــل حقـــود
قـــف بيـــاب الحيـــاة لا تـــدخلنها
واعتـــصم يـــا بنـــي مـــا اســـتطعت منهـــا
ســـوف ألقـــاك- فـــانتظر -بالوصـــيد

*****

هذه بعض صور الماضي في شعر العقاد أما الحاضر، فقد عاشه وسجله من أوسع دوائره السياسية والاجتماعية والقومية والإنسانية والكونية... وحتي الغيبية والميتافيزيقية ومن صور الحضارة في شعره، وصفه في قصيدة ويقول في مطلعها:

بريـــك مـــاذا في ســـتائرك الطلـــس
أأشـــباح جـــن تلـــك تظهـــر للإنـــس؟
إذا لم تكـــن جنـــا، فـــما لي عهـــدتها
تفـــر فـــرار الجـــن مـــن طلعـــة الـــشمس؟

ومن صورها، وصفه للسابحات الفاتنات في البحر، منشدا:

مـــا حاجـــة الأمـــلاك للطهـــر؟
أم تلـــك بعـــض عـــرائس البحـــر؟
أم لؤلـــؤ رطـــب، توائمـــه
عريـــت عـــن الأصـــداف والقـــشر؟

إلي أن يقول في وصف واحدة منهن بالذات:

وحبيبـــة مـــنهن تحـــسبها
في المـــاء صـــورة كوكـــب يـــسري
فـــضية الأوصـــال مفرغـــة

في الحسن من فرع إلى ظفر
لو ذاب جسم من نعومته
في الماء ذابت وهي لا تدري
في الخمس بعد العشر ساحرة
أعيت فنون قهارم السحر
تهتز من سكر وليس بها
إلا عقار التيه من سكر
كالجمر خداها، فإن سبحت
في الماء زاد توهج الجمر
تطفو وتطفر وهي لاهية
كالفلك بين المد والجزر

أما غيبياته، وأبرز محاولاته فيها ملحمة (ترجمة شيطان)... فهي تجرنا إلى الحديث عن مدي إيمان العقاد وإنه لإيمان عميق، موروث ومفهوم ومحسوس يتحدث العقاد عن الله في كتابه (أنا) فيقول: الله موجود، وأن الفلسفة تؤكد هذا الوجود، إذ تعلمنا أن العدم معدوم، فالموجود موجود، موجود بلا أول ولا آخر، لأنك لا تستطيع أن تقول (كان العدم قبله، أو يكون العدم بعده) وموجود بلا نقص يعتري الوجود من جانب عدم، ولا عدم هناك... موجود بلا بداية ولا نهاية ولا نقص، لأن الكامل الأمثل هو الله، ونحن الفانين لن نري إلا جانبا واحدًا من الصور الخالدة في فترة واحدة من الزمان.

*****

ويطول بنا الحديث عن شعر العقاد فلا ننتهي في مثل هذا القدر المحدود من الصفحات، فلابد لنا من أن نصطنع وقفة أخيرة نلملم بها أطراف الحديث،فنقول إن العقاد كان صحفيا وناقدا ومؤرخا وفيلسوفا وقصاصا وناظم أغنية... ولكنه كان يعتد، بكونه شاعرا، وأن أرفع مناصب حياته أنه كان مقررا للجنة الشعر وفي هذا المنصب، خاض أكبر معارك حياته الأدبية- وهي كثيرة- مع دعاة الشعر الجديد، المتحرر من الوزن

والقافية ومن التجني على العقاد أن يقال إن وقفته هذه من الشعر الجديد، هي وقفه رجعية، فالتاريخ يشهد أنه السياسي الوحيد في عهد الملكية، الذي وقف على منبر البرلمان يطالب برأس الملك، وقد دفع ثمن هذه الصيحة تسعة أشهر في السجن والتاريخ يشهد أنه كان من أوائل الثائرين على الوفد حينما انحراف الوفد والتاريخ يشهد أنه عاش ما عاش في مجال الحزبية بلا مغنم، وأنه ذاق شظف العيش دون أن يمد يده، وأنه عاش عيشة النساك المتقشفين إلى أن مات ولم يترك من عرض الدنيا إلا كتبه.. كتبه التي أورثته الضني والسهر. لم يكن عداؤه للشعر الجديد إذن عن رجعية، ولا عن جمود، فهو صاحب المدرسة العقلية في الشعر والنقد والفلسفة، التي لا تعترف بالجمود، وهو صاحب أول دعوة للتجديد في الشعر المعاصر، مع صاحبيه عبد الرحمن شكري وإبراهيم المازني وكان تجديدهم تطويرا للشكل والمضمون أما تجديد المضمون، فلا ينكره ألد خصوم العقاد، وأما تجديد الشكل، فإليك صورة عذبة منه، في قصيدة (بعد عام) منها:

كاد يمضي العام يا حلو التثني

أو تولي

واقترينا منك إلا بالتمني

ليس إلا

مذ عرفناك عرفنا كل حسن

وعذاب

لهب في القلب، فردوس لعيني

في اقترابي

غير أنا لا نري الفردوس إلا

رسم واسم

وشربنا من جحيم الحب مهلا

شرب هائم

وصورة أخري للتجديد في الشكل، نجدها فيما أسلفنا من نماذج ولكن العقاد كان يري – ورأيه الحق فيما نري – أن التجديد يجب أن يكون مقيدا بقيود الفن، لأن الفن في ذاته قيد، وكان يضرب الأمثال في ذلك بقوله إن المشي أسهل من الرقص، ولكن الرقص دون المشي هو الفن، وأن الكلام أسهل من الغناء، ولكن الغناء دون الكلام هو الفن، فلا فن بغير قيد، ومن القيد يستمد الإحساس بالجمال.. وبعد، فأخشي ما أخشاه أيها القارئ، أن تزعم أنني أنصفته، لأنني لم أكن من مدرسته، بل الحق أنني كنت من المدرسة النقيضة، وهي مدرسة شوقي، ولا أزال عليها، ولا أفتأ أقول – على غير رأي العقاد – إن شوقي هو سيد القدامي والمحدثين بموسيقاه الفنية، وأنا ممن يرون أن الموسيقي هي المادة الأولي في ملاط الشعر.

شاعرية كامل الشناوي

كان كامل الشناوي بسمة على ثغر الحياة... لا تكاد تذكر يوما من أيامه، أو ليلة من لياليه، إلا قفزت على شفتيك ابتسامة لنكتة قالها، أو بيت طريف رواه، أو (مقلب) هيأه لبعض أحبابه وأصحابه.

وكأن الله حينما خلق الهموم على الأرض، شاء- من لطفه بعباده- أن يخلق قوما موكلين بإزالتها، ومن طلائعهم كامل الشناوي.

في مأتمه، كنت أسير مع رامي وظل رامي يهمس لي: فاكر..؟ وفاكر..؟ وفاكر..؟ كان يذكرني بروح كامل المرحة، لعله يسري الهم عن نفسه وعني.

من ذلك، أن رامي عاش ما عاش، وهو يأبى أن يدخل التليفون إلى بيته وكنت أسأله في ذلك، فيقول:

- أصلي خايف حد يضرب التليفون لمراتي ويقول لها ان جورك بيحب أم كلثوم وكان كامل الشناوي يعقب على هذه الخصومة بين رامي والتليفون بقوله: إن شاعرين اثنين في الدنيا لم يدخل التليفون في بيتهما، هما أحمد رامي، وامرؤ القيس.

وفي مطلع هذا العام فقط، اقتنع رامي بضرورة التليفون، فأدخله في بيته وسمع كامل بذلك، فاتصل برامي، وقال له:- مبروك يا رامى . لكن إزاى عرفت تدخل تليفون في أزمة التليفونات دي؟

فأجاب رامي.. ببراءة :

- والله يا كامل دانا غلبت على ما عرفت آخد خط

فقال كامل.. جادا:

- طيب يا أخي ما دام لك نفوذ بالشكل ده .... ما تتوسط لامرئ القيس

الهلال : يناير ١٩٦٦.

صـــورة للبحـــر أم صـــورة نفـــسي
عنـــدما الـــنفس مـــن اليـــأس تثـــور
قـــد عـــلا المـــوج وقـــد عـــز التـــأسي
لم يعـــــد إلا عبـــــاب وصـــــخور

***

غـــرب الحـــظ كـــما مـــال الـــشراع
هكـــذا الأعـــمار في الـــدنيا تميـــل
وسرت في الجـــو أشـــباح الـــوداع
وتنـــــادى كـــــل شيء بالرحيـــــل

وهكذا يمضي العمر بين يأس ورجاء . بين لهفة محرقة وأمل لا يتحقق حتى تلوح مغارب العمر وأطياف الوداع والشاعر لا يجد في الدنيا بابا للعزاء ، ولكنه ينظر إلى ما وراء البحر ويهتف: [1]

أإذا اشـــتد عـــلى القلـــب الـــبلاء
أإذا جـــار عبـــاب وتنـــاهي ...
تعـــصف الأمـــواج عـــصفًا بالرجـــاء ؟
كيـــف ننـــسى أن للكـــون إلهـــا ؟

١) المرجع السابق.

الهمشري والبحر:

كان لشاعر الأعراف محمد عبد المعطي الهمشري صلة عميقة بالبحر ، وكيف لا وقد استمد منه أشهر ملحمة ارتبطت به وهي شاطئ الأعراف ، حيث يحدثنا عنه وعنها صديقه الشاعر مختار الوكيل ، فيقول :

كثيرًا ما كنت أتوق إلى الكتابة عن الهمشري الشاعر العاطفي الرمزي الذي عرفته في باكورة الشباب طالبًا بمدرسة المنصورة الثانوية ... فقد التحقت بتلك المدرسة عام ١٩٣١ لأجد بين صفوف تلاميذها طالبين ألمعيين متميزين بما ينظمان من الشعر المتألق الأنيق الرفيع ، وهما الشاعران صالح جودت ، رد الله له كامل الصحة ، وألبسه ثوب العافية وحفظه ذخرًا لدولة الشعر والأدب - والشاعر محمد عبد المعطي الهمشري ...

عرفت الهمشري كما قدمت في تلك الآونة ، وكان يقول الشعر في كل شيء : قاله في معرض الفكاهة عندما سقط فأر في إناء العدس بمطبخ المدرسة ، واشتهرت تلك الأبيات في حينها وتناقلتها الأفواه ورددتها الألسن ، ولعل أبيانا مماثلة في نفس الموضوع نقلت عن الشاعر صالح جودت وذاعت واشتهرت كذلك [1].

وقال الهمشري أبياتًا أخرى في ابنة مدرس اللغة الفرنسية (المسيو بياجي) ، وقد جاءت أبياته تلك عندما أخرج الأستاذ الفنان «رجب» مسرحية للمدرسة قام فيها المرحوم الأستاذ السفير أحمد فتحي رضوان بدور الآنسة ، وقد تولي الأستاذ «رجب» عمل الماكياج بحيث أصبح الأستاذ رضوان على صورة قريبة من صورة الآنسة (بياجي) فما كان من الهمشري إلا أن حيا صانع الماكياج ، البارع بقوله :

(١) الهلال ، ملحمة شاطئ الاعراف ، د . مختار الوكيل ، مايو ١٩٧٦ .

بحبـــي؟ أراح الله قلبـــك مـــن حبـــي
فلـــما كتمـــت الحـــب، قالـــت: لـــشد مـــا
صـــبرت ومـــا هـــذا بفعـــل شـــجي القلـــب
وأدنـــو فتقـــصيني، فأبعـــد طالبـــا
رضـــاها، فتعتـــد التباعـــد مـــن ذنبـــي
فـــشكواي تؤذيهـــا، وصـــبري يـــسوؤها
وتجـــزع مـــن بعـــدي، وتنفـــر مـــن قـــربي

وكان كامل لا يفتأ يردد حكاية الشاعر الأعرابي الذي ارتكب في حياته كل معصيات الدنيا، فلما تقدمت به السن وشارف الموت قال:

هـــل الله عـــاف عـــن ذنـــوب تـــسلفت؟
أم الله، إن لم يعـــف عنهـــا، يعيـــدها؟

من هذه الأمثلة، تتبين لك اتجاهات كامل، كذواقة تأخذه من الشعر موسيقاه ورقته، ينقب في بطون الأدب العربي يستخرج منها روائع لم تشتهر من قبل، لأن أكثر رواة المختارات التي طبعت في الكتب، وفرضت على تلاميذ المدارس وطلاب الأدب، كان ينقصهم ذوق ذواقة ككامل الشناوي وفي تلك (المندرة) علم كامل إخوته الشعر، فشبوا جميعا وما منهم إلا شاعر أو راوية.

نظم أخوه (أبو الفضل) شعرا لطيفا وهو في نحو العاشرة، وإن كان قد انصرف عنه بعد ذلك وبدأ أخوه (مأمون) ينظم الشعر منذ مطالع صباه وكان ينظم بالفصحي، وينشر ما ينظم في مجلة (أبوللو) قبل أن ينصرف عن الفصحي إلى العامية، ويتفرغ لنظم الأغاني الدارجة، ويشتهر بها، وآخرها (بعيد عنك حياتي عذاب) لأم كلثوم.....

وقد لا يعرف الكثيرون من أصدقاء كامل وقرائه أنه بدأ حياته الأدبية في مجلة أسبوعية صغيرة، كان يصدرها المرحوم الشيخ عبد الحميد النحاس، بمرتب لا يزيد على جنيهين في الشهر وكان نتاجه في هذه المجلة مقصورا على أدب الفكاهة، من شعر ونثر

ومقامة وكان هذا التتاج في مجموعه، يمثل طرفا من معركة أدبية كانت قائمة في ذلك العهد بين جماعة (أبوللو) برياسة شوقي وتوجيه أبي شادي، وبين العقاد ومريديه وقد أخذت المجلة التي يعمل بها كامل جانب العقاد، فضلع كامل في المعركة- رغم حبه لشوقي وإيمانه بمدرسته- بينما استعانت أبوللو على حملتها، التي شملت يومئذ طه حسين، وإبراهيم المازني مع العقاد، بيرم التونسي- رحمه الله- وكان بيرم يومئذ في منفاه في باريس، وكان يحرر عن طريق المراسلة جميع صفحات مجلة (الإمام) التي أصدرتها جماعة (أبوللو) يومئذ، من الغلاف إلى الغلاف وهكذا شهدت دنيا الأدب في ذلك العهد معركة ضارية، لا أنكر أنها أسفت في بعض الأحيان، ولم تسلم من التجني- من الجانبين- ولكنها رغم ذلك كله أسفرت عن تصفيات كبيرة لعناصر الضعف، وأبرزت خطوطا واضحة في مدارس الأدب المعاصرة وأخرجت إلى النور مواهب كثيرة شقت طريقها إلى الذروة، ومنها كامل الشناوي، الذي اتجه بعد هذه المعركة إلى الصحافة اليومية، فبدأ من السفح إلى أن بلغ القمة

بدأ كامل مصححا في جريدة (كوكب الشرق)... إلى أن وصل إلى رئيس تحرير الأخبار، وفي غضون ذلك، عمل بالجهاد والأهرام وروز اليوسف اليومية ودار الهلال والجمهورية وقد أتيح لي خلال هذه المدة أن أعرف من كامل الشناوي أكثر مما عرفت منه في أول شبابه. كنت وأنا طالب بالجامعة، أناديه كما يناديه إخوته، بقولنا: ياسي كامل وحينما نال رتبة البكوية في العهد الماضي، قلت له مرة واحدة: (يا كامل بك)... فغضب مني... وقال لي: (قل لي يا كامل..فقط) ومن يومها استجبت له وجعلت أناديه باسمه المجرد وقد عملنا في (الأهرام)، ثم في (الأخبار) في أول نشأتها، وذهبنا معًا إلى أسوان عند إرساء حجز الأساس للسد العالي فعشنا أياما في غرفة واحدة، ثم سافرنا معًا إلى مؤتمر الأدباء بالكويت، فلم نفترق ليل نهار طوال أيام المؤتمر وكانت هذه أول مرة- وآخر مرة- يسافر فيها كامل الشناوي إلى الخارج كما كانت أول مرة- وآخر مرة- يركب فيها الطائرة وكنت أعرف أنه- على ضخامة جسده- ضعيف الأعصاب، يفرق من كل شيء، ومن أقل شيء، وكان من المأثور عنه، إذ نحن نعمل معا بجريدة (الأهرام) أثناء الحرب، هو في السياسة الداخلية وأنا في لسياسة الخارجية، أنه كان لا يكاد يسمع صفارة

الإنذار، حتي يلوذ بدورة المياه، فيلبث بها إلى أن تنجلي الغارة، فيخرج منها شاحب الوجه مهلهل الجسد فلما ركبنا الطائرة إلى الكويت لحضور المؤتمر، رأيت الإشفاق من الموت في عينيه، ويضحك في محاولة للتجلد، وهو يردد بيت أمير الشعراء، الذي كان يفرق من ركوب الطائرة هو الآخر، ولهذا لم يركبها في حياته:

أركـــــب الليـــــث ولا أركبهـــــا
وأري ليـــــث الشـــــري أوفي ذمامـــــا

أقول رأيت هذا الإشفاق من الموت في عينيه، فأغريته بمضيفة الطائرة، وسألتها- بيني وبينها- أن تتلطف معه حتي تزول غشيته، وكانت شابة لبنانية مرحة، تحب الشعر، فما زالت به تداعبه وتشاغبه حتي نسي أنه في طائرة، واستخفه الحسن، فهانت عليه الرحلة حتي..... نهايتها.

كان يستخفه الحسن كما قلت، فعاش عاشقا، لا ينجو من حب إلا ليقع في حب جديد وكانت أحب النساء إليه، ذوات الجسد الضئيل والصوت العذب، ولهذا فإنه كان يحفظ عن ظهر قلب قصيدة لي، يلحنها عبد الوهاب، لتغنيها نجاة الصغيرة، عنوانها (مينيون)...وهي كلمة فرنسية لا مرادف لها بالعربية ترسم في الذهن صورة للمرأة الحلوة الرقيقة ضئيلة الجسد كاللعبة، ومطلع القصيدة يقول بلسان هذه (المينيون) لرجلها فارع القامة:

أحبـــــه، أحبـــــه.. ويزدهينـــــي حبـــــه
وفرتـــــه تعجبنـــــي... وقلتـــــي تعجبـــــه
كـــــأنني في إصـــــبعيه حيـــــنما أقربـــــه
ســـــيجار تؤنـــــسه. تدفئـــــه. تلهبـــــه
كـــــأنني لعبتـــــه. وأضـــــلعي ملعبـــــه
كـــــأنني عـــــصفورة. زقزقتـــــي تطربـــــه
يـــــضمني في يـــــده. ويحتـــــويني جيبـــــه
أكـــــاد مـــــن تيهـــــي بـــــه. آكلـــــه. أشربـــــه

ولكنه كان في كل حب له، يؤمن بالروحية دون الحسية، على حد قول الشاعر القديم:

وكـــم ظفـــرت بمـــن أهـــوي، فيمنعنـــي
منـــه الحيـــاء وخـــوف الله والحـــذر
وكـــم ظفـــرت بمـــن أهـــوي، فيقنعنـــي
منـــه الفكاهـــة والإينـــاس والنظـــر

ومع هذا...

مع تواضع مطالبه من المرأة، لم يلق منها في كل مرة إلا الغبن، فعاش عاشقا شقيًا شجيا، وهذا هو سر الحرقة في شعره وأذكر أنني- عندما صدر ديوانه (لا تكذبي).. وهو ديوانه الأول والأخير- كتبت عنه مقالا في هلال يناير ١٩٦٥.. مقالا عنوانه (شاعر أحب الخائنات).. أحصيت عليه فيه- من واقع قصائد الديوان- عدد ما أحب ممن لم يبادلنه الوفاء بالوفاء عنوان الديوان نفسه (لا تكذبي)..كان صرخة ضد خيانة المرأة وأول بيتين فيه، كانا حكاية أكبر حب في حياته.. وأكبر غدر وقع فيه قلبه:

لا تكـــــذبي.. إني رأيـــــتكما معـــــا
ودعـــي البكـــاء، فقـــد كرهـــت الأدمعـــا
مـــا أهـــون الـــدمع الجـــسور إذا جـــري
مـــن عـــين كاذبـــة فـــأنكر وادعـــي

خمسة شعراء، لعبوا دورهم في حياة كامل الشناوي، فأثروا في كيانه، أو في شعره، هم: الشريف الرضي، وأبو العلاء المعري، وأبو نواس، وإيليا أو ماضي، وأمير الشعراء أحمد شوقي.

١- الشريف بكبريائه... كان الشريف لا يخشي أن يشمخ أمام الخليفة، ويقول له:

عفـــوا أمـــير المـــؤمنين، فأننـــا
في دوحـــة العليـــاء لا نتفـــرق

مـــا بيننـــا يـــوم الفخـــار تفـــاوت
أبـــدا، كلانـــا في المفـــاخر معـــرق
إلا الخلافـــة ميزتـــك، فـــإنني
أنـــا عاطـــل منهـــا، وأنـــت مطـــوق

وأحب كامل في الشريف هذه الكبرياء،وأحب الكبرياء. مرة.. روي لي أنه مفتون بمضيفة في فندق هيلتون، هي التي نظم فيها قصيدته التي عنوانها (في الكافيتريا).. يقول فيها:

مـــرت بنـــا كـــالطيف تـــسالنا
مـــاذا تريـــد؟ فلـــذت بالـــصمت
ودنـــت لتـــسألني عـــلى حـــدة
عـــما أريـــد، فقلتهـــا: أنـــت!

أنـــا يـــا صـــبية شـــاعر هـــرم
قـــد جـــاء يـــستوحي الـــشباب هنـــا

وذهبت معه إلى الكافيتريا لأري فاتنته وملهمته.. كانت شابة لطيفة، خضراء العينين، وليس فيها، بعد هاتين العينين الخضراوين، ما يستهوي شاعرًا، اللّهم إلا شيء من الاعتداد بالنفس ومكثنا نحو ساعة، ثم قمنا، أصررت أنا على أداء الحساب- وهو ضئيل- فتركني كامل أؤديه على غير عادته في أكثر الأحيان، هامسا لي: ستري وأديت الحساب، وتركت للشابة في الصحن الإكرامية الواجبة لمثلها، والتي أتركها عادة لكل زميلاتها، فإذا بوجهها يحمر خجلا، وإذا بها تدفع بالطبق نحوي قائلة في أدب: متأسفة.. وتولي مدبرة وقال لي كامل:

- أرأيت؟.. إنها الوحيدة هنا، التي ترفض البقشيش... كبرياء! وأجمل ما يفتنني فيها هذه الكبرياء ولحبه للكبرياء... يقول، في قصيدة عنوانها (لست عبدا):

٢- وأبو العلاء بحيرته وتشاؤمه... وبكل فلسفته

فقد عاني كامل شظفا في طفولته، ثم لانت له الحياة، ولكنها لم تلن لبعض إخوته، بل لعلها قست على اليتامي من أبناء بعض إخوته، فأسي كامل لهم، وأعالهم، وبر بهم كل البر، وأحس مأساتهم فلم يتزوج خشية أن يكرر المأساة، أخذا بقول أبي العلاء:

هـــــذا جنـــــاه أبي عـــــلي
ومـــــا جنيـــــت عـــــلى أحـــــد

أما حيرة أبي العلاء المأثورة، فمنها حيرة كامل في مثل قوله:

زعمـــوا حبـــي يـــا قلـــب خطايـــا
لم يطهرهـــا مـــن الإثـــم بكايـــا
والخطايـــا مالهـــا مـــن غـــافر
فترفـــق.. وتمهـــل في الخطايـــا

كما تأثر بأبي العلاء في تشاؤمه، وإن كان كامل يدفع عن نفسه تهمة التشاؤم في مقدمة ديوانه، ويقول: إن المجانين وحدهم الذين يضحكون للحياة..، وما أعرف أحدا ضحك للحياة في حياته قدر ما ضحك كامل وأضحك من حوله، ولكنه كان أشد الناس حزنا إذا خلا إلى نفسه ليكتب شعرا أو نثرا ... ومن تشاؤمه قوله يصف نفسه:

كهـــارب لـــيس يـــدري
مـــن أيـــن: أو أيـــن يمـــضي
شـــك: ضـــباب: حطـــام
يعـــضي يحطـــم بعـــضي

وقصيدته في يوم مولده هي ذروة التشاؤم في حياته.

٣- وأبو نواس... في حياته، بعيدا عن الشعر، فقد عاش كامل نواسًا يحب الليل وكل ما يحتضن الليل. كل ما بين الرجلين من خلاف، أن النواسي كان مغرقا في الحسية، أما

كامل، فقد غلبت روحانيته على حسيته إلى حد كبير وكان كامل يعترف بأنه صديق لأبي نواس، وقد حفظ شعره ودرس حياته دراسة نفسية مفصلة، وأزمع أن يكتب له سيرة بأسلوب جديد في رواية السيرة ونشر بعض فصول هذا الكتاب في (الجمهورية) ثم انقطع ومن أجل التحايا لهذه الفصول، ما قاله المغفور له الأمير عبد الله السالم الصباح- أمير الكويت الراحل- حين دعانا- كامل وأنا- إذ نحن هناك في مؤتمر الأدباء منذ سنوات قال الأمير لكامل يومئذ:

- أن من يقرأ فصولك عن أبي نواس، لا يشك قيد شعرة في أنك كنت معاصرا له يا كامل بهذه المناسبة، أرجو أن تجمع هذه الفصول، ما نشر منها وما لم ينشر، وتصدر في كتاب عن أية هيئة من هيئات النشر.

٤- **وايليا أبو ماضي... داعية مذهب (اللاأدرية)**.. وصاحب قصيدة (لست أدري) التي غني بعضها عبد الوهاب، أثرت (لا أدريته) أيما تأثير في تفكير كامل الشعري، فهو يقول في إحدى قصائده:

أنـــــا في الظـــــل أصـــــطلي
لفحـــــة النـــــار والهجـــــير
وضـــــميري يـــــشدني
لهـــــوي مالـــــه مـــــصير
وإلى أيـــــن؟ لا تـــــسل
فأنـــــا أجهـــــل المـــــصير

خمسة أسئلة.. يتساءلها الناس منذ آدم حتى الإنسان الأخير..ولا جواب عنها إلا: لست أدري ... ويوغل كامل في السؤال عن هذه الغيبيات، فيقول في قصيدة يتساءل فيها من يكون (أنا):

يـــا رب فـــيم خلقتنـــا نهـــب الـــضباب
...فـــــلا ظـــــلام ولا ســـــنا؟

ونـــدب فـــوق الأرض لا نـــدري بهـــا
ونـــدب فـــوق الأرض لا تـــدري بنـــا
أنـــا مـــن أنـــا؟ أنـــا مـــن أكـــون؟
وســـــــيلة؟... أم غايـــــــة؟
أنـــا لـــست أعـــرف مـــن أنـــا..

٥- وأخيرا.. أمير الشعراء شوقي وكان كامل الشناوي يقول، كما نقول نحن، إنه أستاذنا الأول والأخير، وإنه سيد الأولين والآخرين، بموسيقاه السحرية، ببيانه المشرق، بخياله الخصب.. بنتاجه الضخم.. بمسرحياته الخالدة.. بجده وعبثه.. بإسلامياته وغرامياته.. بمصريته وعروبته وإنسانيته بمحافظته وتجديده ... مرة.. هاجم أحد النقاد المحدثين ذكري شوقي، وقال إنه لو عاش في زماننا هذا لما كان له شأن!

وبكيت يوم قرأت هذه الكلمة الخسيسة بعد أن رأيت أقدار الرجال تهون وقال لي كامل الشناوي كلمة كفكفت دمعي.. قال:

(لا عليك إذا رأيت الموتى ينتقدون الأحياء!)

مأساة شاعر الكرنك

لم يعرف الناس هذا الشاعر، أحمد فتحي، قبل أن يغني له عبد الوهاب أنشودة الكرنك... كما لم يعرفوا صاحبه على محمود طه قبل أن يغني له عبد الوهاب ما غني له من أغاريد عذبة، منها (الجندول) و(كليوباترا) و(ليالي كليوباترا) وإذا كان الغناء يمنح الشعر كل هذا القدر من الذكر وبعد الصيت، فإن الشعر يرد الجميل مضاعفا، ويمنح قدرا أكبر من الخلود، بدليل أن هذه الأغنيات الشعرية التي ألفها أحمد فتحي وعلي محمود طه، لا تزال تجري على ألسنة الناس بعد أن مر عليها عقدان أو أكثر من عقدين من الزمان، بينما عشرات ومئات من الأغنيات الدارجة التي يغنيها أعلام الغناء تموت على ألسنة الناس قبل أن ينصرم من عمرها نصف العقد أو ما دونه وهذا وجه من وجوه شرف الفصحي على الدارجة. صادفت أنشودة الكرنك هوي في نفوس الناس لأكثر من سبب:

لأنها ظهرت في عصر سادت فيه الأغنية الدارجة، حتى على شفاه أصحاب الأسماء الكبيرة من أهل الغناء، فكان طلوعهم على الناس بأغنية عربية فصحي مرة كل عامين أو ثلاثة، يعد حدثا في عالم الغناء ولأنها تناولت غرضا من أغراض الغناء غير الحب، في عصر لم يطرق فيه أهل الغناء بابا غير باب الحب، حتى مله الناس بعد أن أصبحت معانيه مكررة لا تثير في وجداناتهم أي انفعال وهكذا اقترن اسم الكرنك بأحمد فتحي، وأصبح الناس يعرفونه بشاعر الكرنك و(الكرنك) كلمة محرفة عن (الخورنق) فقد هبط العرب مصر عند الفتح، وتوغلوا إلى أعماق الصعيد، ورأوا دار آمون الكبري، ولمحوا في سقوفها تلك النوافذ التي ترسل النور إلى أبهائها، مما ذكرهم بقصر النعمان بن المنذر، ذي النوافذ في إقليم الحيرة، فأسموا الدار المصرية (الخورنق)... ثم حرف الأوروبيون الكلمة لرطانة في ألسنتهم، فأصبحت ... الكرنك.. التي أوحت الأنشودة المأثورة التي مطلعها:

الهلال : ديسمبر ١٩٦٦.

حلـــــم لاح لعـــــين الـــــساهر
وتهـــــادي في خيـــــال عـــــابر
وهفـــــا مـــــلء ســـــكون الخـــــاطر
يـــــصل المـــــاضي بحلـــــم الحـــــاضر

*****

منذ مائة سنة أو أكثر قليلًا، شدت أسرة من بطون الجزيرة العربية، اسمها أسرة فايد، رحالها للهجرة إلى مصر بغاية الإقامة فيها لأمر لا نعلمه، وحملت الأسرة معها خيامها إلى أن حطت بها في رمال الصحراء بمديرية الشرقية، عند موضع يقال له "كفر الحمام"، حيث نصبت خيامها المصنوعة من الشعر – شأن البدو – وانتشرت في تلك البقعة من الأرض، ومازالت بها تعالجها بالفأس والماء حتى جعلت منها قرية زراعية خصيبة ذات بيوت من الطين كسائر بيوت ريف مصر.

وكان أبناء هذه الأسرة يتميزون بشيء خارق هو حبهم للشعر، يطلقونه على سجيتهم موزونًا مقفي دون أن يلقنهم أحد أصوله وعروضه، إلى حد أنه قد برز منهم أكثر من شاعر أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولكنه يرسل الشعر فصيحًا أو بدويًا دون أن يختل له وزن أو تنبو منه قافية.

من هذا البيت، وفي ظل هذه القرية النائمة على حافة الصحراء، نشأ الشيخ إبراهيم سليمان، أبو شاعرنا أحمد فتحي إبراهيم سليمان، وكان الشيخ من علماء الأزهر .. وكان ينظم الشعر، وقد شارك بمنظومه الملتهب في ثورة سنة ١٩١٩، واشتهر عنه أنه كان ينظم المظاهرات الوطنية في الإسكندرية مستعينًا بزملائه وتلاميذه إذ هو شيخ للمعهد الديني هناك، وقد زج به في السجن وتعرض بيته لغارات الشرطة عدة مرات.

وقد تزوج الشيخ أكثر من مرة، ومن إحدى هذه الزيجات خرج شاعرنا إلى النور في اليوم الثاني من أغسطس سنة ١٩١٣.

ولهذا كان الشاعر، كلما ألمت به ملمة، وذكر هذا التاريخ في تشاؤم، قال: "ألست من مواليد سنة ١٣" تطيرا بالرقم الذي يقال إنه مشئوم.

*****

قضى الشاعر طفولته موزع القلب بين الإسكندرية ومسقط رأسه: قرية كفر الحمام.

ولما شب عن الطوق، التحق بالمدرسة الابتدائية في الإسكندرية، ثم تجاوزها إلى المدرسة الثانوية .

وماتت أمه وتركته طفلًا لم يجاوز العاشرة بكثير.. ثم مات أبوه وهو ابن خمسة عشر عامًا، فتعثر في دراسته، وبدأ يلتقي بالشيطانين: شيطان الشعر وشيطان الحياة.

ولعل شاعرنا كان يقصد إلى أن يصف طفولته حينما كتب في صدر شبابه قصة طويلة اسمها "الله والشيطان".

في هذه القصة، يتحدث البطل عن طفولته قائلًا: "لم أكن في صدر صباي طفلًا حسن السلوك على أي حال. ولعل هذا هو ما كان يحدو بأبي إلى تخويفي بالشيطان كلما ثارت النزعات الخبيثة في نفسي، تلك النزعات التي كانت تزين لي ارتكاب الحماقات دائمًا، وفي كل مكان.

"وبقدر الجلال الذي كان يحف بصورة الله المرتسمة في خيالي، كان يحف بصورة الشيطان خليط من الرهبة والشر والمآثم، ولعل ذلك كان علة شوقي إلى رؤية وجهه، بعد أن يئست من رؤية وجه الله سبحانه وتعالى".

*****

لم يرث الشاعر عن أبيه شيئًا من الإرث إلا وسامته وعينيه الزرقاوين وسجية الشعر.

ومنذ تلك السن المبكرة – الخامسة عشرة – عقد الشاعر مع الشيطان صداقة عجيبة، لعبت أكبر دور في حياته – كما فعلت بالدكتور فاوست – حتى هدمته وحطمته.

منذ تلك السن المبكرة بدأ يمارس لذاته الحسية، ويصاحب الكأس، فلم يستطع أن يظفر بشهادة "الكفاءة على تواضعها".

وكفله خاله بعد موت والديه، فحاول تقويمه على غير طائل، فألحقه بمدرسة الفنون التطبيقية – وهي يومئذ مدرسة صناعية متوسطة – فلبث بها حتى تخرج فيها سنة ١٩٣٠، وعين موظفًا بجمرك الإسكندرية.

ويصف لنا الشاعر ما كان من أمره مع صاحبه الشيطان بعد تلك الفترة، في كتابه "الله والشيطان"، فيقول: "وحين دلفت إلى سن الشباب، وأخذت أتناول الحياة من كل جانب، وأروي من شبابي ظمأة إلى المتعة واللذاذات، وجدت أنني أغدو على مر الأيام صديقًا حميمًا للشيطان، وتابعًا من أتباعه المطيعين، وكم كان يحز في نفسي أنني لا أستطيع أن أراه".

"وتضاءل الوازع الأخروي في نفسي رويدًا رويدًا، وأصبحت لا أكاد أحس اقترابي من الغاية المحتومة شيئًا فشيئًا، فما كان لي في تلك الحال من الصبوة أن افتكر بثواب أو عقاب، فكل ما كان يشغل أفاق أفكاري لم يكن يعدو التحايل لاقتناص المتع وانتهاب المسرات".

*****

وتنتقل الوظيفة بشاعرنا من جمرك الإسكندرية إلى التعليم الفني، فيشتغل مدرسًا بمدرسة الصناعات بالسويس. وفي هذه الفترة يبدأ اتصاله بالحياة الأدبية، ويراسل مجلة "أبوللو".. التي كانت تصدر عن جماعة "أبوللو" للشعر في تلك الآونة.

ويتردد كثيرًا على القاهرة، ويتعرف إلى شعرائها وأدبائها ومحافلها الثقافية، ويخوض معاركها الفكرية، فترى له في مجلة "أبوللو" مقالًا عنوانه "في معنى الانتحال" يهاجم فيه العقاد وأصحابه، ويأتي بشواهد على نظر العقاد في شعر سابقيه

وتكتب لقمة العيش على أحمد فتحي أن يذهب إلى الأقصر، مدرسًا بالمدرسة الصناعية، فلا يستطيع أن يغرق همومه في النيل أو يؤقلم روحه ويروضها على التصوف في معابد الأقصر الخالدة، فقد غلبته لذات الحس في ذلك الجدب، فملأته حنينًا إلى القاهرة وكل ما في القاهرة من متاع.

ويكتب إلى صاحبه الأستاذ أنور أحمد بعد ثمانية أيام... يقول:

"تصور أنني أنفقت هنا أيامًا ثمانية، كانت في حساب قلبي أعوامًا ثمانية. ولو أنك رأيتني الآن لأنكرتني: شحوب وذهول، وعبرات لا ترقأ وكفاتها أبدا، وظلال من الذكريات الغائمة لا تميل عن المخيلة المكدودة.

"لقد أقفرت كل دنياي من مباهجها، وهل شيء أبعد أثرًا في نفس الشاعر من أن يصبح وحيه أحجارًا جاثمة وأطلالًا قائمة، وهذه الأناشيد الحزينة التي تغلف الأحزان وتجعل من الوحدة المكتئبة ضجيج مهرجان وصخب أعياد وقدس مثول في حضرة آلهة السماء....

لو كنت في القاهرة..... "يا ... رحم الله أيامي بالقاهرة، أو رحمني بعدها"

على أنه من وحي هذه "الأحجار الجاثمة والأطلال القائمة" التي يستنزل شاعرنا سخطه عليها.... خرجت قصيدته "أنشودة الكرنك" التي أصبحت أظهر أعمال حياته في نظر الناس.

ومن يدري... لعله لو لم يذهب إلى الأقصر، ولو لم يستوح هذه الأحجار الجاثمة والأطلال القائمة، ما عرف الناس شيئًا من أمره ولا سمعوا بيتا من شعره.

على أن كل أجره عن هذه القصيدة لم يزد على ثلاثة جنيهات تقاضاها من الإذاعة في ذلك العهد.

وبعد نجاح أنشودة الكرنك، وما أضفت عليه من ذيوع صيت، نظم أنشودة أخرى بعث بها إلى عبد الوهاب، مستشفعًا بكثير من كبراء العهد، ومنهم الدكتور طه حسين، والمرحوم محمد سعيد لطفي. بيد أن عبد الوهاب أتعبه وأضناه.

فلما أوشك أن ييأس منه، اتجه إلى أم كلثوم، وتوجه إليها بأنشودة عنوانها "نداء الغروب" ... وهي من وحي وادي الملوك.... يقول فيها:

*****

تلك هي بعض أبيات الأنشودة التي بعث بها شاعرنا إلى أم كلثوم، لعلها تعوضه بعض ما فقد من أمل في عبد الوهاب ولكنها غضت الطرف هي الأخرى يومئذ، فلم يجد مناصًا من أن يشيع أغانيه على ألسنة الصف الثاني من أهل الغناء، فنظم عشرات الأغاني بالفصحى والدارجة، ولكن أغنية منها لم تشتهر ولم تصب من الحظوة عند الناس بعض ما أصابت أنشودة الكرنك.

وعادت لقمة العيش تحمله من الأقصر إلى الفيوم، وتقربه إلى حبيبته: القاهرة.

ومنذ طفولتنا ونحن نسمع ذلك المواال الشعبي العذب ونشجي له: سبع سواقي بتنعي لم طفوا لي نار.....

وكنت أحسبها أسطورة لا وجود لها، هذه السواقي السبع التي تنعى، إلى أن رأيتها في ربوع الفيوم حقيقة رائعة.

ورأيت حولها عيون "السليين" وعيون "الفيديمين" و"الحدائق المعلقة" و"بحيرة قارون" وغير ذلك من آيات الطبيعة الساحرة، وكأن هذه البقعة من أرض مصر قد اغتصبت من بقية مصر نصيب الأسد من السحر والشاعرية.

وقد عاش رامي فترات من شبابه في هذا الفردوس، وكانت له فيه قصة حب سجل مراحلها في أكثر من قصيدة من شعره العذب، أخص بالذكر منها قصيدة "ريفية الفيوم" التي مطلعها:

نشأت في منابت التين والزيتون
في ظل هادلات الكروم
وسقاها من بحر يوسف عذب
سلسبيل من مسكه المختوم

سمعنا هذه القصيدة العذبة من رامي في مطالع شبابنا، في أول الثلاثينيات وكان أحمد فتحي يؤم بعض مجالسنا في عهد جماعة "أبوللو" ويسمع هذه القصيدة ويفتتن بها.

وهكذا علقت بخياله صور حلوة للفيوم كما رسمها رامي.. منابت التين والزيتون... وهادلات الكروم.... وبحر يوسف ... وسواقي الهدير.

فلما كانت نقلته إلى الفيوم – سنة ١٩٤١ – مدرسًا بالمدرسة الصناعية تفاءل خيرًا وكتب إلى صاحبه أنور أحمد يقول له :

"السواقي تكاد تطغي على نداءات خواطري وأنا أكتب لك، ومع هذا فإنه لنواح حبيب، يا ليتني أستطيع أن أسجله في أبيات كما سجله رامي في قصائد".

بيد أن الحرب كانت قائمة الأوزار يومئذ، وقد نجحت الدعاية البريطانية في اجتذاب الشاعر إلى جانبها بما أغدقت عليه – عن طريق أغانيه وأحاديثه في الإذاعة البريطانية – من دخل أعانه على يسر الحياة وأسباب المتعة، فانغمس فيها، ووجه شعره إلى التنديد بالمحور ونصرة الحلفاء... ومن ذلك قوله:

وهكذا اتخذ أحمد فتحي موقفًا من معركة الحلفاء والمحور. وسواء أكان موقفه هذا عن إيمان أو عن غير إيمان، فقد زج به، لسوء حظه، في تيار لم يستطع أن يرجع عنه فيما بعد، إلى أن قذف به، بعد مرحلة الفيوم، إلى ميدان الحرب في الصحراء الغربية، بعيدًا عن وطنه، ضابطًا في قوات الحلفاء، يلبس كسوة ضباطهم وهو يشعر بالخجل منها.

ويرحل الشاعر عن مصر... ويودع حبيبة عمره بقصيدة عاطفية حلوة الأنفاس يقول فيها:

أغاريد من ذكرى هواك وأنغام
تعود، فهل عادت ليال وأيام؟
هنا... كان لي قلب وفي ومرتع
رضي وآمال حسان وأحلام
وكان هوانا يملأ الرحب بهجة
يصورها في صفحة الكون رسام

ماذا حدا بشاعرنا إلى هذه النقلة السوداء؟

إنه يفسر لنا نازعة النفس التي قذفت إلى الصحراء في إحدى رسائله الشجية، فيقول:

"أنت تدري أنني رجل لا سبيل للمال إلى استمالته. ولكن ... حدث أنني سعيت إلى الشهرة سعي المجد، وطلبت المجد طلب الملحاح، وبذلت في سبيل ذلك ما بذلت من نضرة شبابي ونور عيني. "فلما بدأ نجمي يتألق في سماء المجتمع، وأقبلت على الشهرة إقبال المشوق، كان ما تبقى في النفس ذماء لا يكاد ينتفع بالحياة في جملتها ولا في تفصيلها.

وفقدت نصف قلبي منذ ثلاثة أعوام، وفقدت نصفه الباقي منذ أيام.....

صـــــار جـــــدًا مـــــا لهـــــوت بـــــه
رب جـــــــد جـــــــره لعـــــــب

"ولقد فزعت إلى الشراب من مواجعي وعذاب دنياي، فما زادني إلا ضعفًا عن احتمال الحياة ومواجهة متاعبها، وعادت علة الجسد تزيدني من يقظة جراح قلبي، وأصبحت حياتي كلها مقاساة ونكرًا.

"وتلفت حولي، فإذا أنا ولا ناصر ولا معين... وإذا مثلي كمثل الكسرة من الخبز العفن، ملقاة في عرض الطريق، إن وجدت تقيًا يرفعها إلى جانب الحائط، فإنها لن تجد من يأكلها بأية حال.

"قلت لنفسي: لعلنا نصطنع لنا وطنًا جديدًا وعملًا جديدًا وآفاقًا جديدة، يرتفع في ظلالها الإحساس الجريح والخيال مهيض الجناح، ولعل تغيير الجو وتبديل الوسط وتجديد المعالم .. لعل ذلك كله أن يعين على طي صفحة الماضي بخيره وشره، بل بشره وحسب، فما كان فيه من خير قط.

"وفي بضعة أيام أبرمت الأمر، وعقدت العزم على الرحيل، لم أشاور أحدًا ولم أستأنس برأي أحد، بل استخرت الله في المضي، وحضرت رحلي أطياف الشباب من أماني شاحبة غاصت في عبرات الأسف على ما ضاع من ضحوة العمر ونضرة الشباب، ورحلت وأنا لا أدري إلى أين؟

"ولست أدري حتى الساعة ماذا يراد بي، فإن كان خيرًا فقد أسلفت من الصبر والتجمل ما يثبت حقي في أن أنعم بما بقي لي في صحبة الحياة من أمد، وإن كان شرًا، فقد:

تعـــودت مـــس الـــضر حتـــى ألفتـــه
وأســـلمني حـــسن العـــزاء إلى الـــصبر

"ولكن شر ما أكابد الآن – في برقة – هو هجر شيطاني الصادح الذي طالما هششت إلى هزجاته بين تجهم أيامي وفي أمسياتها العابسة. فما عدت أهتف ببيت من الشعر، ولا عاد يطرقني طيف من أطياف اخيال.

والواقع أن شيطان أحمد فتحي لم يحسن صحبته بعد تلك الفترة، فقد عاد شاعرنا من الصحراء الغربية بعد حين، بعد أن خلع حلة الجيش البريطاني، ولجأ إلى صاحبه المرحوم محمد سعيد لطفي – مدير الإذاعة يومئذ – وقد كان على صلات طيبة بالإنجليز، فتوسط للشاعر عندهم، فعينوه مذيعًا ومترجمًا للأخبار بالإذاعة البريطانية بلندن، في فترة مظلمة ظالمة تكاثرت فيها القنابل الطائرة على العاصمة البريطانية ... وذهب أحمد فتحي إلى لندن، ولكنه لم يحسن صحبة من حوله، ولم يتخل عن بوهيميته التي لا تقيده بموعد، وتجعل موعد الحب قبل موعد العمل.

وهكذا ضاقوا به.... فلم يعد بد من الاستقالة في يونيه سنة ١٩٤٦، أي بعد أن وضعت الحرب أوزارها بعام وحاول أن يبقى في لندن، كمراسل لبعض الصحف المصرية، ولكن مراسلة الصحف لم تقم بأوده، فحاول أن يمارس التجارة، ولكن متى كانت تجارة الشاعر رابحة؟!.

على أن لندن قد حملته ذكرى ظل يدمع لها بقية حياته.

فقد أحب هناك.....

أحب شابه إنجليزية اسمها "كارول" .... وهي من بنات الطبقة المتوسطة، وكانت تشتغل كاتبة على الآلة الكاتبة، وتزوجها، ورزق منها طفلة أسماها جوزيفين.

وكان قد تعود أن يفرط في الشراب، فلا يفيق منه، وهكذا لم يستطع أن ينهض بتكاليف الحياة الزوجية.

وجاءه النذير حينما رفضت السلطات الإنجليزية أن تجدد إقامته هناك، فكان عليه أن يرحل، ويترك زوجته وابنته خلف ظهره، ويبحث عن أي مصير.

وقد أتيح له أثناء عمله في الإذاعة البريطانية أن يتعرف إلى كثير من الشخصيات العربية التي كانت تتردد على لندن، ومن بينها الأمير عبد الله الفيصل، وهو يومئذ شاب في مثل سن شاعرنا، وهو كذلك شاعر، وله ديوان اسمه "محروم"

ولعل صاحبنا شكا للأمير الشاب حاله، ولعل الأمير لمس ما في شاعرنا من مواهب نادرة، فوعده بتهيئة عمل له في الإذاعة السعودية.

وصدق الأمير وعده، وعاد شاعرنا إلى القاهرة، وتأهب للسفر إلى السعودية.

وهناك... أقام حينا مترددًا بين عمله الإذاعي والاشتغال بالمقاولات، ولكن الأرض المقدسة ضاقت به ضيق الأرض غير المقدسة.. أرض الإنجليز... فلم يلبث أن عاد إلى مصر... ليعيش على عمل صحفي طورًا، وعلى صلة يصله بها صاحبه الأمير تارة، إلى أن ودع الحياة وهو في غيبوبة ثمالة، وحيدً في غرفته بالفندق، في اليوم الرابع من يوليو سنة ١٩٦٠.

وذهب... وسارت وراءه حفنة قليلة من الناس.

أما بقية الناس فلم يعودوا يذكرونه إلا حينما يسمعون بيتيمته في الإذاعة و"أنشودة الكرنك" لعبد الوهاب، وأنشودة أم كلثوم.

أنـــا لـــن أعـــود إليـــك مهـــما
اســـترحمت دقـــات قلبـــي
أنـــت الـــذي بـــدأ الملالـــة
والـــصدود وخـــان حـــي
فـــإذا دعـــوت اليـــوم قلبـــي
للـــصفاء فلـــن يلبـــي

مات أحمد فتحي دون أن ينال أي نصيب من الدنيا... وعلى شفتيه وهم خلود يهمس للناس:

مـــاذا أفـــدت بأشـــعاري وروعتهـــا
ســـوى علالـــة تخليـــد لآثـــاري
ومـــا الخلـــود بمـــأثور لعاريـــة
غـــير الخسيـــسين مـــن تـــرب وأحجـــار

شاعر الحضارة الريفية
م. ع. الهمشري

ما عرفت شاعرًا يحب الحياة ويفر من الموت كهذا الشاعر، رحمه الله.

كان يحب الحياة وينهبها نهبًا .. وقد يضلك من أمره أنك لا تجد في شعره أثرًا لضحكة أو ابتسامة بل لعلك واجد كل ما هو عكس ذلك، من تجهم وتشاؤم، وحديث عن الموت ونبوءات بدنوه منه.

*****

ولد الهمشري ميلادًا شاعريًا، على شاطئ رأس البر، سنة ١٩١٠ .. ومات ميتة خاطفة وهو في عمر الزهور، سنة١٩٣٨م.

ورغم أنه لم يعش أكثر من ٢٨ سنة، فقد خلف وراءه تراثًا شعريًا، قوامه أكثر من ألف بيت، يعد ذخيرة من أجمل ذخائر الشعر المعاصر.

ولو كانت الأمور تجري مجراها الطبيعي في حياة الناس، لكان الهمشري شاعرًا أعجميًا، ولعاش على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط، ليضيف التراث الذي خلفه وراءه، لا إلى الأدب العربي، بل إلى أدب تلك الدولة الصغيرة، ألبانيا، التي ولد فيها جده، أحمد الهمشري، قبل أن ينزح إلى مصر.

ولكن هذا الجد، لظروف لا نلم بها، هاجر إلى مصر، وطاب مقامه فيها، ورزق فيمن رزق من البنين، عثمان الهمشري، والد الشاعر .

تزوج عثمان الهمشري سيدة تركية، رزق منها ابنة واحدة، ثم لم تطب حياته معها، ولعل سر هذا أنها لم تنجب له ولدًا. فاهتدى إلى الزوجة الثانية، وتخيرها هذه المرة من أسرة مصرية من المنصورة اشتهر أفرادها، المتعلم منهم والأمي على السواء بالذكاء والألمعية .

كانت هذه الزوجة الثانية هي السيدة عائشة شقيقة الكاتب الكبير الأستاذ محمد التابعي، صاحب الأسلوب الفرد في النقد والسخرية ومنشئ المدرسة الأثيرة في عالم الصحافة.

وأثمرت هذه الزيجة خمسة أولاد وبنتًا، كان أولهم شاعرنا م.ع. الهمشري.

*****

نشأ شاعرنا في المنصورة.. والمنصورة أرض طيبة، تنبت الشعر والجمال، وتلهب الحب والخيال، ويشتهر رجالها بالظرف والذكاء، والإغراق في حب الأدب والفن، كما تشتهر نساؤها بالجمال والخفة والشاعرية.

وقد كانت صورة الحياة في المنصورة ضاحكة في ذلك العهد. فمعهد الموسيقى فيها ناجح ومزدهر. والأندية على شاطئ النيل ممتدة لامعة الأضواء يؤمها أهل الفن من القاهرة، ويحيون فيها أطيب الليالي..

وأهل المدينة يعيشون عيشة ميسرة، يحبون المرح، ويحسنون النكتة ويقبلون على الحياة، ويعشقون النيل، يغنون له في زوارقهم عصر كل يوم.

وقد أثر عن المدينة يومئذ أنها مسرح للغانيات، يقصد إليها أهل المدن الأخرى في عطلة نهاية الأسبوع، لينعموا بأطايب الحياة.

يضاف إلى هذا أن المدينة كانت – ولعلها لا تزال- مزهوة بنفسها من سحر مشاهد الطبيعة فيها، وما بها من رائحة التاريخ الفاخر إذ ساق أهلها ملك فرنسا- في عهد الأيوبيين – أسيرًا، وألقوا به في صحن الدار المعروفة بدار ابن لقمان، وهي لا تزال قائمة هناك ولا يزال المتنزه الرئيسي في المدينة يحمل اسم الملكة الأيوبية الفاخرة (شجرة الدر).

كانت سماء المنصورة يومئذ تجلجل بالشعر . كان فيها على محمود طه المهندس، صاحب أنشودة الجندول، وكان فيها أيضًا الدكتور إبراهيم ناجي، شاعر اللهفة العاطفية.

في هذا الجو الحالم، نشأ الهمشري، وبدأ يغرد ويردد أغاني الحب.

*****

كانت بين حسان المدينة يومئذ شابة حلوة، أصلها من قرية قريبة من المنصورة تتكئ على ذراع النيل، اسمها "نوسا البحر" كان اسمها المدلل "توحة".. وكان يحلو لها أن تخرج ساعة العصر من كل يوم، فتسير في شوارع المنصورة، وقد لفت جسدها الغض بملاءة حريرية سوداء هفهافة كبنات البلد- مع أنها لم تكن منهن وتتبختر في مشيتها بخترة تذيب قلوب الشباب، ولا تضن على أحد منهم بنظرة عابثة، أو ابتسامة مغرية، ترسلها من خلف نقابها الشفاف.

ويقولون إنها كانت بطلة لكثير من القصص في المدينة، ولكننا - الهمشري وأنا- كنا لا نزال تلميذين صغيرين في المدرسة، دونها سنًا، فهي في أجمل أيام الشباب في نحو العشرين فلم يكن لنا أن نظفر منها بواحدة في هذه القصص التي ينسبونها إليها، إن صدقا وإن كذبًا ولكننا كنا نكتفي منها بالنظرة العابثة والابتسامة المغرية دون أن نطمع في أكثر من هاتين لنتخذ منهما وحيًا لشيء ننظمه .

.....

وذات يوم، نظم الهمشري قصيدة عاطفية من أرق شعره، وجعل عنوانها "إلى نوسا" وهو اسم قرية "توحة" قال فيها:

منـــك الجـــمال ومنـــي الحـــب يـــا نوســـا
فعلـــلي القلـــب، أن القلـــب قـــد يئـــسا
يـــا حبـــذا نـــسمة مـــن توحـــة خطـــرت
أطالـــت الـــنفس مـــن أســـبابها النفـــسا

ولم يدر بخيالنا، ونحن نقرأ القصيدة، ونري ما فيها من حديث عن الحب اليائس والقلب الذي تحول إلى برق أكثر من أن الهمشري شاعر، وللشاعر أن يحلم ما شاءت له أحلامه، وللشاعر أن يتصور في الخيال مالا في الواقع وللشاعر أن يعذب نفسه ما يعذبها من أجل محبوب لا يحس وجوده ولا عذابه.

ذلك هو الأمر إنما كان في أوهامنا ولكنه كان أجل من ذلك في حقيقته التي لم يحدثنا عنها أبدًا وإلى أن مات، فأسر إلينا بها ذووه.

وما كان لي أن أذيع بعض هذه الحقيقة . لولا أنني مضطر إلى إزاحة بعض الآثار عنها بالقدر الذي تتطلبه أمانة التاريخ الأدبي والذي يكفل إلقاء الضوء على مصدر أكبر عمل في حياته الأدبية، وهي ملحمة "شاطئ الأعراف".

فالحقيقة أن "توحة" لم تكن هي بطلة قصيدة "نوسا" وإنما أقحم اسمها إقحامًا على القصيدة لكي تستطيع كل كلمة أن تتحدث عن "نوسا" بغير كثير من الحرج كان في "نوسا" أمل..

ذلك أن زوج خالته كان عمدة "نوسا" وكانت هذه هي الصلة التي ربطته "ببيت طفولته" وكانت بين أقرانه طفلة صغيرة في مثل سنه، أو أقل قليلًا، هي ابنة بيت من البيوتات الكريمة في نوسا.

كانا يلعبان معًا فيمن يلعب من أبناء القرية وبناتهن إذ هم صغار يطيرون في الحقول كالفراشات، يتعقبون الفراشات، ويسرحون ويمرحون في براءة الطفولة.

ثم كبر الزمن، وكبر الهمشري وكبرت هي معه، حتى بلغا اليفاعة فوجب عليها - وهي ابنة الأسرة المحافظة - أن تحتجب في خدرها ولم يكن الهمشري يدري إذ هو يكبر مع الزمن أن عاطفته نحوها تكبر معه فكان يكثر من التردد على القرية الهادئة يتنسم أخبار صغيرته التي كبرت ويسعده أن يلمح طرفها من نافذة بعيدة ويعود ليملأ الدنيا بحبها شعرًا وغناء.

هذه -لا توحة - هي الملهمة الحقيقية لقصيدة "نوسا" وما اسم "توحة" في القصيدة إلا تمويه، حرصًا منه على قداسة الحب الوحيد الذي عاش في قلبه إلى أن سكت هذا القلب .

وكانت قصيدة "نوسا" هي آخر ما نظمه الهمشري في حياته من الشعر العاطفي، بعد أن عاد إلى نوسا ذات يوم، فعلم أنه فقد حبه إلى الأبد إذ زفت حبيبته إلى غيره، وكان يتمناها لنفسه، فانقطع الأمل.

انتهى الشاعر العاطفي..

وهجر الهمشري كلية الآداب، والتحق بوظيفة بالتعاون.. وكان التعاون يومئذ تابعًا لوزارة الزراعة. كانت وظيفته تحرير مجلة "التعاون" وقد عرف الهمشري مكانه من الحركة التعاونية منذ البداية، إذ قرأ سيرة الشاعر الإيرلندي الكبير "جون راسل" الذي وهب حياته وشعره ونثره للكفاح ضد الاستعمار البريطاني وضد الرجعية والرأسمالية والإقطاع، وحمل رسالة الدعوة التعاونية والحضارة الريفية، على صفحات مجلته "الدوار الإيرلندي" التي كانت مجرد مجلة، فجعل منها جون راسل مجلة عالمية، تحمل رسالة الحضارة الريفية إلى جميع أنحاء أوروبا وأمريكا!

وتتلخص رسالة الحضارة الريفية، في الدعوة إلى بث النزعة الديمقراطية في أهل الريف عن طريق التعاون، والقضاء على الجوع والفقر والجهل بينهم، ونقل مزايا الحضارة -دون سوءاتها- من المدينة إلى القرية،

آمن الهمشري بهذه الدعوة، فحمل رسالتها على صفحات مجلة التعاون وعلى الرغم من أنها كانت مجلة حكومية تابعة للدولة الملكية الحزبية في ذلك الوقت، فإنه حمل على كل هذه العناصر حملة شعواء في شجاعة بالغة. دعا إلى تحقيق الحضارة الريفية وإلى عودة أعيان الريف، الهاربين من الميدان، إلى الريف.

جند الهمشري سلاحيه، المقالة والقصيدة، لتحقيق هذه الدعوة.. جعل المقالة للدعوة الإيجابية، وهي تحقيق الحضارة الريفية. وجعل القصيدة للدعوة السلبية، وهي الإشادة بجمال الريف، والتغني بمزاياه.

وبعد أن كان شاعر العاطفة،كما أسلفنا القول، أرست النهاية البائسة لقصة حبه "نوسا" نهايته كشاعر عاطفي، وأعلنت ميلاد أعظم شاعر ريفي في تاريخ الأدب المعاصر يتغني بالربيع فيها، ولياليها المقمرة، وأشجار النارنج التي تملأ أجواءها بالعطر،ونخيلها المتطلع إلى السماء، وإشراق الشمس وطلوع القمر، وأحلام الفجر ومسارح الشفق، كما لم يغن شاعر آخر من قبل، ويقتحم أخيلة وألفاظًا ومسميات جريئة لم يقتحمها شاعر من قبل، في مثل هذه الأنشودة الريفية التي يصور بها غناء الفلاح لجاموسته:

تنقّـــلي تنقـــلي   مـــن جـــدول لجـــدول
جاموســـتي يـــا ساحـــرة   جـــوبي الحقـــول الناضـــرة

تنقلي.. تنقلي

يـــشدو لـــك العـــصفور   ويهمـــس الغديـــر
خطوتـــك الحـــسناء   يمـــشى بـــها الرجـــاء

obeikandl.com

الفكاهة في الشعر المعاصر

يقول قوم إنه لم يعد لأدب الفكاهة موضع في مجال الأدب في هذا العصر، بعد أن جدت الحياة، وأخذ الأديب- من شاعر أو غير شاعر- بالالتزام، ووضحت الأهداف أمامه، وهي أهداف عليا لا تترك له فسحة من الوقت للمزاح ولا للتفكه. بحيث يحق للناقد في هذا العصر أن يخرج أدب الفكاهة من إطار الأدب الصحيح..

أجل .. جدت الحياة، فلم يعد فيها مكان للهازلين.

ولكن الحياة تصبح مستحيلة حينما تتجرد من إنسانيتها.

وتتجرد الحياة من إنسانيتها، حينما تزول البسمات من فوق الوجوه .. تلك البسمات التي تبعثها نكتة حلوة، أو صورة كاريكاتورية ساخرة، أو مونولج فكه، أو مسرحية ضاحكة، أو بيت من الزجل أو الشعر يشيع المراح في النفوس.

فإذا كان هناك من يقول باستبعاد أدب الفكاهة من مجال الأدب الصحيح، وجب عليه إذن أن يطالب بالقضاء على فن الكاريكاتير والمونولوجات الفكهة والمسرحيات الضاحكة، وتحريم البسمات على الشفاه، وتجريد النفس الإنسانية من إنسانيتها المجبولة على التماس مراح الحياة، بعد الانتهاء من ساعات جدها اليومي، والخلو إلى طلب السكينة والتعويض والترفيه، ولو أننا راجعنا أعمال أعلام الشعر في كل زمان ومكان، حتى أصحاب المدارس الأدبية العليا، مثل ت.س.إليوت في الأدب الإنجليزي، وأحمد شوقي في الأدب العربي، ما وجدنا شاعرًا واحدًا خلت صفحاته من أبيات لاهية أو عابثة أو هازلة.

وإذا كان أبو تمام قد قسم الشعر إلى عشرة أبواب، وقسمه غيره إلى ثمانية عشر بابا، هي الغزل، والوصف، والفخر، والمدح، والهجاء والعتاب، والاعتذار، والأدب، والزهد، والخمريات، والمسرات، والبشارة والتهاني، والوعيد، والتحذير، والتحريض، والسؤال، والجواب، فإن الشعراء المحدثين قد يختلفون كثيرًا في هذا التقسيم:

الهلال : أغسطس ١٩٧٥.

قد يستغربون – أول ما يستغربون – عدم إدراج (الفكاهة) كباب مستقل بين هذه الأبواب ولا أحسب أن الذين وضعوا هذا التقسيم قد نسوا الفكاهة، ولعلهم لم يشاءوا أن يجعلوا لها بابًا خاصًا، حتى يفسحوا لها أكثر من مجال في أبواب أخرى، كالهجاء أولًا، ثم الخمريات والسؤال والجواب.

وأقول .. الهجاء أولًا .. لأن الهجاء لا يكون هجاءً فنيًا إذا كان ثقيل الظل، خلوًا من الصور الفكاهية التي تنتزع الضحكات من أعماقنا، أو ترسم الابتسامات على شفاهنا على الأقل.. فقصيدة المتنبي القبيحة، التي هجا بها ضبة بن يزيد العتبي، والتي يقال إنها كانت سبب مصرع شاعر العربية الأكبر، حينما سمع أهل ضبة القصيدة فخرجوا وراء المتنبي فقتلوه.. هذه القصيدة لم تخل من تصورات فكهة بالغة من السخرية أقصى مداها .. إلى حد لا يجيز لنا نشرها بكل ألفاظها، وأقصى ما نستطيعه في هذا المجال أن ننشر بعض أبيات منها، مع تنقيط الكلمات الفاضحة، تاركين مكان النقط لذكاء القارئ المتعجل، محيلين القارئ غير المتعجل إلى أصل القصيدة في ديوان المتنبي:

ما أنصف القوم ضبه
وأمه الطرطبه
رموا بـرأس أبيه
و..... الأم غلبه
فلا بمن مات فخر
ولا بمن ... رغبه
كل .... سهام
لمريم وهي جعبه
ما ضرها من أتاها
وانما ضر ....
يا أكرم الناس نفسا
وألين الناس ركبه

وأرخـــــص النـــــاس أمـــــا
تبيـــــع ألفـــــا بحبـــــة

وفي الشعر المعاصر أيضًا، تستمر الظاهرة نفسها، ولا ينفصل الهجاء عن الفكاهة، ويبقي بينهما هذا الخيط الرفيع، كما يبدو لنا في هذين البيتين للدكتور إبراهيم ناجي، في هجاء إنسان دميم، كان يعيش على هامش دنيا الأدب. قال ناجي في هذا المسكين:

يـــا نـــسل "داروين" وخلقـــته
وخلاصـــة النظريـــة القـــذره
يـــا عبقريـــا في دمامتـــه
ولـــدتك أمـــك وهـــي معتـــذره

ويسقط الشعراء المحدثون من تلك الأبواب الثمانية عشر أكثر من باب أصبح غير ذي موضوع في هذا العصر، كالفخر والمدح والتهاني وغيرها من الأغراض الدنيا التي لا ترقي إلى مستوى الشعر الخالص، كما يسقطون أبوابًا أصبحت الجرأة عليها عملًا ممجوجًا في هذا العصر، كالتشبيب بالمذكر، والخمريات المسرفة.

ونعود إلى حديث الشعر الفكاهي في هذا العصر، فنجد أن النماذج المنشورة منه في الكتب والصحف والدواوين نادرة إلى حد قد يوحي لغير الدارسين والمخالطين للأجواء الأدبية بأن هذا اللون في الشعر صائر إلى زوال، ولا سيما إذا قورنت حصيلتنا المعاصرة منه بحصيلة الماضي، في الكيف والكم.

والتعليل الأول لذلك، أن شعراء الماضي كانوا يعيشون في فراغ، وكانوا يتكسبون بالأدب، وكانوا يعيشون على منح الخلفاء والسراة، أما الشعراء المعاصرون، فمشغولون بطلب العيش، ولا يتكسبون بالأدب، ولا يتلقون المنح، ففراغهم المحدود لا يتيح لهم إلا تكريسه لأعماله الجادة.

ومهما يكن في هذا القول من صحة، فإن الشعر المعاصر لا يزال غنيًا بأدب الفكاهة، ولكن قلة النماذج المعروضة منه- إذا قورنت بنتاج الماضي- ترجع، أول ما

ترجع، إلى أن حفظة التاريخ الأدبي في العصور الماضية كانوا يثبتون للشاعر كل ما نظم من قول مشروع أو غير مشروع، من هجاء فاحش، أو خمريات ماجنة، أو تشبيب بالمذكر، أو غير ذلك من الأغراض مهما تهاوت صورها ومعانيها وألفاظها .

ولا يزال من حق الشاعر القديم- كلما أعدنا نشر إنتاجه- أن نثبت له هذا بكل أمانة.

أما الشاعر المعاصر، فقد يطرق غرضًا من هذه الأغراض، ولكنه يأبي أن يثبته، ويأبي غيره أن يثبته له في ديوان منشور على الناس.

مثال ذلك، أكثر شعر شاعر البؤس عبدالحميد الديب. فقد كانت له قصائد كثيرة قبيحة، لا تخلو من روح الفكاهة، كقصيدته التي يقول فيها :

وهـــام بي الأســـى والبـــؤس حـــتى
كـــأني عبلـــة والبـــؤس عنتـــر

ومن الأمثلة الطريفة في هذا المجال، أبيات للشاعر محمود غنيم، قالها في أديب معروف من كبار الموظفين- ولنسمه "فلان" – شاء القدر أن تكون رئيسته مرأة قال غنيم:

"فـــلان" نعـــم الرجـــل
محـــترم مبجـــل
لـــه رئيـــسة إذا
مـــا أمـــرت يمتثـــل
يـــرى بهـــا قدوتـــه
في كـــل أمـــر تفعـــل
حـــتى إذا مـــا حملـــت
تـــراه أيـــضًا يحمـــل

هذه الأبيات تجرنا إلى ذكر الدوافع الجديدة في الشعر الفكاهي المعاصر.

فالدوافع في هذه القصيدة، هو مساواة المرأة بالرجل في الحقوق المدنية والسياسية، وهو دافع جديد لم يعرفه القدامى، ولو عرفوه لتركوا لنا فيه ذخيرة ضخمة من شعر الفكاهة.

واختلاف نظرة الناس إلى الجمال في هذا العصر، يفتح الباب إلى دافع جديد من دوافع الشعر الفكه.

فقديمًا، كان جمال المرأة يتمثل فيما يتراكم عليها من الشحم واللحم. يقول الشاعر القديم في قصيدته التي يتغزل بها في حبيبة لها (مأكمة) عريضة لا يتسع لها الباب:

تريك إذا دخلت على خلاء
وقد أمنت عيون الكاشحينا
ذراعي عيطل أدماء بكر
هجان اللون لم تقرأ جنينا
وثديًا مثل حق العاج رخصًا
حصانًا من أكف اللامسينا
ومأكمة يضيق الباب عنها
وكشحا قد جننت به جنونا

هذه المرأة لو وجدت في عصرنا هذا لأصبحت سخرية الشعراء وغير الشعراء بعد أن ذهبت أيام رفيعة هانم وجاء عصر النحافة الناحلة الرقيقة.

وقد كتب القدر على الشاعر الراحل محمود عماد أن يحب امرأة من ذوات المآكم الضخمة، فنظم فيها هذه الأبيات اللطيفة:

أمنطاد كيانك يا حبيبي
أم أنك قد طويت على كئيب؟
مثلت بحيز في الأرض يكفي
ليمرح فيه أكثر من حبيب
أحبك قطعة من بعد أخرى

وإلا احتجـــت فيـــك إلى قلـــوب
يهـــون الحـــب تقـــسيطًا بجـــسم
نـــأي فيـــه الـــشمال عـــن الجنـــوب
يـــدور عليـــك عنـــد الـــصبح قلبـــي
فيفـــرغ منـــك في وقـــت الغـــروب
وعجهـــدة لعينـــي إن أطافـــت
ولم تـــرتح بجـــسمك يـــا حبيبـــي
أتمـــشي أم تـــدحرج.. لـــست أدري
فحقـــك أن تـــسير عـــلى قـــضيب
إذا بلـــد حللـــت بـــه خـــصيب
فـــما هـــو بعـــد بالبلـــد الخـــصيب

وكانت السياسة القائمة على الأحزاب والحزبية إلى ما قبل الثورة، مدعاة للسخرية والهزل، انعكست على مرآة الشعر في ذلك العصر، فاغتني بها شعر الفكاهة.

ومن أبرع النماذج التي طالعت الناس في هذا الضرب، قصائد "الشاعر إياه" في مجلة (الكشكول) وكان ناظمها هو المرحوم الشاعر محمد الهياوي، وقد شنها حملة ضارية على الوفد وزعيمه سعد زغلول، ومصطفى النحاس، من بعده، ولم يخل أكثرها من إسفاف، لا يعتذر له في ذلك إلا أن السياسة كلها هبطت إلى حضيض الإسفاف في ذلك العهد ومن نماذجها، قوله لسعد زغلول بعد خطبة ألقاها يصف فيها الإنجليز بأنهم "خصوم شرفاء معقولون".

بربـــــر برابـــــر بربـــــره
أمـــــا كلامـــــك مـــــسخره
حيرتنـــــا يـــــا أقـــــرع
دوختنـــــا يـــــا ابـــــن المـــــره

وعلى صفحات الكشكول أيضا.. ظهرت من الشعر الفكه ألوان صارخة الفكاهة والسخرية، للمرحوم حسين شفيق المصري، منها (المشعلقات) و(الشعر الحلمنتيشي) وغيرهما.

ولم يعرف العرب المسرح، فلم يعرفوا بالتالي الشعر المسرحي كما عرفه المصريون القدامى، ومن بعدهم اليونان والرومان والأوروبيون جملة، إلى أن ظهرت مسرحيات شوقي الرائعة، التي لم تخل بعض مواقفها من نماذج بارعة من الشعر الفكه، ولا سيما مسرحية (الست هدى) .. وكذلك بعض مشاهد مسرحية "مجنون ليلى" كمشهد المعركة الوهمية بين بشر ومنازل، وكلها جعجعة بلا طحن، يرسمها شوقي في صورة هازلة حافلة بالطرافة.

وبعد، فإن المقام لا يتسع للاستفاضة في إبراز سمات الشعر الفكاهي المعاصر وتحديد بواعثه وخصائصه، ومن الأوفى بالقصد أن نتحدث عن أبرز رواد هذا المجال من الشعراء المعاصرين.

أحمد شوقي

وقد ألمحنا إلى جانب الفكاهة في شعره المسرحي.

كما أن له نتاجًا كثيرًا في لون من الشعر الأسطوري الذي أجراه على ألسنة الحيوان والطير، في الجزء الرابع من (الشوقيات) لا يخلو من فكاهة.

أما شعره الغنائي، فقد كان جانب الفكاهة فيه قليل، ونخص بالذكر منه دعاياته للمرحوم الدكتور/ محجوب ثابت، فله فيه سخريات بديعة في وصف (مكسويني) حصان الدكتور محجوب وفي وصف سيارته (الأوفرلاند) الخربة، وفي وصف البراغيث التي طالما صور أمير الشعراء ذقن الدكتور محجوب ملعبًا لها كقوله:

براغيث محجوب لم أنسها ... ولم أنس ما طعمت من دمي
تشق خراطيمها جوربي ... وتنفذ في اللحم والأعظم

وكنت إذا الصيف راح احتجمت ... فجاء الخريف فلم أحجم
ترحب بالضيف فوق الطريق ... فباب العيادة فالمسلم
قد انتشرت جوقة جوقة ... كما رشت الأرض بالسمسم
وترقص رقص المواسي الحداد ... على الجلد والعلق الأسحم
بواكير تطلع قبل الشتاء ... وترفع ألوية الموسم
إذا ما "ابن سينا" رمى بلغما ... رأيت البراغيث في البلغم
وتبصرها حول، "بيبا" الرئيس ... وفي شاربيه وحول الفم
وبين حفائر أسنانه ... مع السوس في طلب المطعم

حسين شفيق المصري

وكان له شعر جاد جميل، ولكنه قليل .. ولعل اشتغاله بالصحف الهزلية، ولا سيما الكشكول، قد أرغمه على هجر الشعر الجاد والإكثار من الشعر الهازل طلبًا للقمة العيش.

وكانوا يسمونه "أبونواس الجديد" لأنه كان نواسيًا في حياته وخمرياته ومن أطرف الألوان التي ابتكرها في شعر الفكاهة... (المشعلقات) وهي معارضات للمعلقات المأثورة، يأتي بمطلع الواحدة منها، ثم يسلك نفس البحر والقافية، ساخرًا، مستخدمًا مزاجًا من اللغة الفصحى واللهجة المصرية، وله – فيما خاض من ألوان الشعر الفكه– مقطعات كثيرة مرحة، كقوله على لسان ليلى الأخيلية:

يا نادي الأضاشة والخيانة
والندامة والصدامة
إني أصبحت كوميديه
من بعد تمثيل الدرامه

وقوله على لسان العباس بن الأحنف:

ألـــم تـــر عينـــي كيـــف صـــار بياضـــها
حمـــارًا كـــأن العـــين صـــارت طماطـــما
وإني متـــى مـــا قيـــل إنـــك مـــش هنـــا
لطمـــــت إلى أن صـــــار وشي وارمـــــا
لـــو أنـــك فـــوق الـــسطح والـــسطح في الـــسما
وقلـــت لـــه اطلـــع لي، انـــط الـــسلالما

وقد درج أكثر شعراء الفكاهة الذين عاصروه على نهجه، واتخذوا منه أستاذًا لهم، وملئوا وجوه الصحف الهزلية الكثيرة التي كانت شائعة في العهد الماضي كالسيف والناس والمسامير والبعكوكة وغيرها، بألوان مقلدة من أدب حسين شفيق المصري، رحمة الله عليه.

بيرم التونسي

وبيرم مدرسة ضخمة في تاريخ الأدب الشعبي، وقد كان يفخر دائمًا بأنه زجال، على غير شأن ناظمي الأدب الشعبي اليوم، الذين يصرون على تسمية أنفسهم شعراء.. رغم أن نتاج بيرم لم يخل من شعر جاد، وإن كان قليلًا وقد مارس بيرم الشعر الفكه، وتميز في هذا المجال على غيره ممن مارسوه، بأن شعره الفكه كان هادفًا دائمًا .

وأبرع مثل لذلك، قصيدته في "المجلس البلدي" التي حمل فيها على بلدية الإسكندرية حملة شعواء لكثرة ما تفرض من الضرائب على الناس وتحاربهم في أرزاقهم، وقد كان أكثر أعضائها يومئذ من الأجانب.

يقول بيرم في هذه القصيدة الفذة:

لا تنكـــروا مـــا رأيـــتم مـــن ضـــني جـــسدي
ولا فـــــؤادي الـــــذي أمـــــسكته بيـــــدي
بمحنتـــي لم يـــصب في النـــاس مـــن أحـــد
قـــد أوقـــع القلـــب في الأشـــجان والكمـــد
هـــوى حبيـــب يـــسمي المجلـــس البلـــدي

حفني ناصف

كان رجلًا واسع الأفاق متعدد المسارب، وكان إلى جانب ذلك من أئمة ظرفاء عصره، وهو صاحب الأبيات المعقدة التي نسبها إلى الشيخ حمزه فتح الله وهو منها بريء.

وحكاية ذلك أن حفني ناصف و لشيخ حمزة وآخرين كانوا في رحلة نيلية على بواخر شركة كوك، وكان الشيخ لا يفتأ يشكو من سوء الخدمة في الباخرة، فنظم حفني هذه الأبيات على أنها من نظم الشيخ- الذي اشتهر بإقحام الألفاظ القاموسية المعقدة في حديثه اليومي- وبعث بها إلى اللورد كرومر:

يـــا أيهـــا الفيـــصل المزجـــي زواجـــره
صـــوب الـــسفين وصـــوب الـــسوس سربلـــه
اشـــكوك كوكـــك كـــي ينفـــك عـــن جنـــف
قـــد كـــان كـــلا وكـــل مـــل كلكلـــه
أبـــاتني والجـــرشي حـــشوها ضـــجر
إن مـــس شـــقي خـــشب الفلـــك قلقلـــه

وله في مداعبة أصدقائه كثير من هذا اللون، منه هذان البيتان في مداعبة المرحوم الشيخ عبدالعزيز جاويش:

وقـــالوا احتـــسي هـــذا النـــشويش مدامـــة
ألـــم تـــره للبـــشر يبـــدي وللأنـــس
ومـــا ذاق طعـــم الخمـــر يومًـــا، وإنـــما
بـــه نـــشوة مـــن كثـــرة الأكـــل للعـــدس

عباس العقاد

وكان العقاد يبدو للناس عملاقًا جهمًا. ولكن واقعه لم يكن كذلك . ففي الحق أنه كان من أظرف الظرفاء إذا ظفر بقوم يأنس إليهم، ويرتاح إلى مجلسهم.

وكان – إذ هو مقرر للجنة الشعر بمجلس الفنون والآداب – يشيع في كل جلسة جوًا من المرح والإيناس بما يسوق من نكات القدامى والمحدثين وطرائفهم، وكان يفرح بالنكتة الجديدة فرحة طفل كبير .

ولعل كتابه (جحا الضاحك المضحك) من خير كتبه، يكشف عن روح العقاد المرحة إلى أبعد حد.

وله في مداعبة أصدقائه كثير من القصائد والأزجال أيضًا، يستأثر بنصيب الأسد منها صاحبه محمد طاهر الجبلاوي.

مرة.. كتب له طاهر من الفيوم يزعم أنه فقد حافظة نقوده، فبعث العقاد اليه بالرد يحمل شيكًا ومعه هذه الأبيات:

تتجنى على اللصوص من الظلم
... فياليتهم تجنوا عليكا
إن يكن ضاع منك ما ضاع فاعلم
أن كفيك غالتا كفيكا
بين كأس شهية وشراب
عبقري تجلو به عينيكا
فتقبل شيكاتنا ثم حاذر
أن تزوغ الشيكات من كفيكا
ثم هرول يا خيتعور من الفيوم
... جريًا، ولو على قدميكا

وكان طاهر الجبلاوي يقتني كلبًا يؤنسه في وحدته، فدهمته سيارة، فقضى، فبعث العقاد إليه بهذه الأبيات يعزيه:

حزنًا على كلب طاهر
فإنه طاهر الكلاب
تشابها في خليقة
واتفقا شيمة الصحاب

وللعقاد قصيدة مشهورة عنوانها "حديقة حيوانات آدمية" يقول في مقدمتها:

"هذه الحديقة لا تجمع إلا الفنان أو المحب للفنون، سمي كل زميل من زملائها باسم حيوان يلاحظ في اختياره اتفاق الشبه في الملامح والعادات".

وقد شبه العقاد في هذه القصيدة كل صاحب من أصحابه بأحد الحيوانات، فهذا دب وذاك قرد وثالث جدي ورابع ضبع.. إلخ.

يقول العقاد في مطلع تلك القصيدة:

أورفيوس الفن سوى بينها
فتلاقي الدب فيها بالقرود
وتغني فرس البحر بها
يا له من فرس طلق النشيد

أحمد رامي

في دمشق شخصية ظريفة سمحة، يعرفها أكثر الأدباء والشعراء.. تلك هي شخصية "أبي سهيل" المدير الليلي لفندق سميراميس الذي ينزل فيه أكثر أصحاب الأقلام.

ومن عادة أبي سهيل، إنه إذا هبط عليه – إذ هو نائم بالليل – أحد يطلب غرفة، قال له دون أن يفتح عينيه، إن الفندق كله محجوز لشركة كوك.

وتكررت هذه الحكاية مع كامل الشناوي فكتب له هذين البيتين:

أو كلما جئنا لنطلب غرفة أرجفت كوك
أأبا سهيل، أنت في الآباء ملعون أبوك..

ولم يغضب أبوسهيل، لأنه يحب الشعر ويقدر الفكاهة ويعلم أن (القافية تعذر)

وحينما نزلنا – رامي وأنا – في هذا الفندق منذ بضع سنوات، تعودنا أن نسهر خارج الفندق، ثم نعود في آخر الليل فلا نجد عشاء، فنسأل أبا سهيل أن يعوضنا عن العشاء ببعض الفاكهة، فكان يعد ويخلف، ولا يعد إلا ليخلف، فنظمنا فيه معًا هذه الأبيات:

أمن حق الوفاء أبا سهيل
نقضي الليل في أعقاب ليل
ونحن على الطوى من غير قوت
ولو بسطرمة أو لحم خيل؟

ومن ألطف ما نظم رامي من الشعر الفكه، قصيدته في صديقه الشاعر اللبناني الكبير أمين نخلة، حين دعاه إلى أكلة ضفادع قال رامي:

دعاني إلى أكلة ممتعه
وقال سيطعمني ضفدعه
وكيف تكون الضفادع قوتًا
وبيتها الليل من منقعه؟
لها مشية مثل زحف القعيد
إذا دب يسعى على أربعه
وجلد كجلد الحذاء القديم
تهرأ وصاحبه رقعه

ثم راح يصف صاحبه وهو يأكلها :

وراح بعنـــف يقـــضقض منهـــا
عظامًـــا لهـــا بيننـــا قرقعـــه
فخيـــل لي أن أمـــد ذراعـــي
وطـــاب لكفـــي أن تـــصفعه
فـــلا كـــان ذاك الغـــذاء الكريـــه
ولا كـــان يومـــك يـــا ضـــفدعه

محمود غنيم

ومحمود غنيم هو أكبر الهجائين في هذا العصر، وينصب هجاءه دائمًا على رءوس أصدقائه الشعراء.

ومن لطيف تورياته في مداعبة صديقه الشاعر الراحل محمود الخفيف:

أيهـــا الـــشاعر جعنـــا
هـــات لحـــمًا ورغيفًـــا
واســـقنا شـــايًا ثقـــيلًا
لعـــن الله الخفيفـــا

******

لا أحسب أنني استطعت في هذه الصفحات المحدودة أنني أوفيت حق الكثيرين ممن مارسوا هذا اللون من الشعر، ولكنها صورة عجلي، تؤكد أن النفس الإنسانية لا تزال تتنفس في مجال الشعر ببسمات حلوة، وإن تكن أكثر حصيلتنا من هذه البسمات ضائعة في غمار الحياة أو في غمار الحياء.

بين محنتين

مر صالح جودت سنة ١٩٣٩ في شبابه بمحنة صحية خطيرة إذ أصيب صدره بمرض عضال وهو لم يتجاوز العقد الثالث من عمره، ودخل المستشفى للعلاج واستلهم من وحي هذه التجربة المريرة وهو على فراش المرض قصيدة مؤثرة سماها "نحو الآخرة" وتأثر الأصدقاء والمحبين فكتب الأديب الكبير الدكتور زكي مبارك مقالاً بمجلة الرسالة تحت عنوان "شاعر ينبغ فوق سرير المرض" قال فيه:

"مضت سبعة أعوام والأستاذ صالح جودت يحقد عليَّ أبشع الحقد لسكوتي عن التنويه بمواهبه الشعرية، وما هدأ نار الحقد في صدره إلا عرفانه بأني لا أخصه بذلك السكوت وإنما هو مبدأ ارتضيته ودرجت عليه. وذلك المبدأ هو الضن المطلق بتشجيع الناشئين، لأني أعتقد أن كل شيء يجوز فيه التشجيع إلا الأدب والبيان، فالتشجيع هنا مفسدة ولا يقع إلا من "الجماعة" الذين يحتاجون إلى أسندة من الهتاف والتصفيق، والتحدث عنهم بحق وبغير حق في الأندية والقهوات والجرائد والمجلات.

" وهذا المبدأ هو الذي فرض على جمهور من هذا الجيل أن ينفضوا من حولي، فما يهمهم أن يذكروني بالجميل في مجلة أو جريدة ، لأنهم لا يذكرون أني طوقت أعناقهم بشيء من التشجيع، وأنا غير آسف على ما فاتني من ذلك الحظ.

"ولو أنني استبحت التفريط في الحرص على هذا المبدأ مرة واحدة لاستبحته في معاملة الأستاذ صالح جودت ، وهو صديق لا أذكر أنه قصر في حفظ العهد إلا باتهامي بالسكوت عن التنويه بمواهبه الشعرية، وهو اتهام مردود، لأني لا أذكر أن أشعاره نقلت قلبي من مكان إلى مكان حتى أجشم نفسي مشقة الدرس لشعره البليغ.

"كان صالح جودت يتقاضاني الكلام عن شعره في كل لقاء، وكنت أجيب بأن ذلك

الرسالة : ٢٣ سبتمبر ١٩٤٠.

سيكون يوم يظفر بدرجة من درجات الجامعة المصرية، لأني أخشى إن شجعته أن ينصرف عن الدرس وينقطع لقرض الشعر ومراسلة الجرائد والمجلات، فلما سمع صالح جودت نصيحتي وظهر بالدرجة المنشودة جاء يذكرني بما كنت وعدت، فهل وفيت بما وعدت؟

"حملني الزهد في اجتلاب المودات على وصل السكوت بالسكوت، كما كنت صنعت في معاملة صاحب "الجندول". ثم شاءت الأيام أن أسمع أن صالحاً وقذه المرض فلم يعد بهجة الأندية الأدبية، ولم يبق رجاء في التحدث إليه إلا بعد استئذان الطبيب.

"فإن كنتم سمعتم أن الشعراء وصفوا الدنيا بالخيانة والغدر والعقوق فاعرفوا أن ذلك الوصف لم يحق على الدنيا إلا لبغيها الأثيم على مثل هذا الشاعر، وله قلب أطيب وأطهر من قطرات الندى فوق أزهار الربيع.

"ومرت ثوان ودقائق وساعات وأيام وليال وأسابيع وأشهر ولم يخرج صالح من سجن المرض، فما أطول شقائي بمحنتك القاسية، أيها الصديق.

"وعلى حين غفلة أسمع أن الفتى الذي لم يرضني شعره قد نبغ فجأة فوق سرير المرض، فهو الذي يقول في تصوير ما بقي من أوتار هواه في دنياه:

فليرحم الله آمالي وأهوائي ... إني قنعت بهذا المخدع النائي
بقية العمر أيام تدب على ... صدر تهدم إلا بعض أشلاء
أعيشها ناسكا في ركن صومعة ... قامت على صخرة كالموت صماء
يبدو خيال الأماني لي فأطرده ... حتى كأن الأماني بعض أعدائي

ثم يصف عزلة المستشفى وأحوال ساكنيه فيقول:

أواه من عزلة كالسجن مغلقة ... على جراح وآلام وأرزاء
ما هذه الجثث الملقاة في سرر ... أنصاف موتى على أنصاف أحياء
صفر الوجوه كأن السقم عفرهم ... بحفنة من تراب القبر صفراء
لملأه فيهم تراتيل منغمة ... تنساب من قصبات نصف خرساء

وما لهم من نهار فيه مرحمة ولا لهم ليلة ليست بلـيلاء

ثم يلتفت إلى الممرضة الحسناء – ومن تقاليد المستشفيات أن تكون الممرضات صباح الوجوه إلى حد الفتون ليغرسن بذور الأمل والحياة في صدور المكروبين- يلتفت إلى الممرضة فيقول:

يا ممرضتي الحسناء قدر لي أن ألتقيك بأرض غير حسناء
ماذا أتى بي هنا؟ ما خطب عافيتي؟ وكيف غال شبابي غائل الداء
قد كان لي موعد في الصيف مرتقب على الشواطئ بين "الرمل" والماء
فما لذا الصيف يمضي بي على جبل جهنمي اللظى في جوف صحراء
وأنت.. هل عطف المبقى على رمقي عطف المحبين أم عطف الأطباء
إن كان ذاك فيا سعدي ويا فرحي أو كان هذا فإني في الأذلاء
الحب يشهد أني يا ممرضتي ما صدني عنك إلا فرط إعيائي

أما بعد فهذه الشاعرية ليست صحوة الموت. يا صالح، وإنما هي الفجر الصادق، وسترجع إلينا بعد أيام وأنت في غاية من عافية البدن والروح.

❊❊❊

لكن صالح جودت مر بمحنة أشد قسوة في نهاية حياته، فمنذ سنة ١٩٧٤ بدأ المرض يثقل على صالح جودت الشاعر الطروب المحب للحياة، وكان غالباً يضيق بأوامر الأطباء وتعليماتهم، وسافر إلى مستشفيات لندن في أواخر عام ١٩٧٥، وظل يعاني المرض العضال الذي هد قواه وأرهقه.

ومن أكثر المآسي في حياته أنه عرف أن نهايته قريبة في مطالع عام ١٩٧٦ حيث أطلعه الأطباء على حقيقة مرضه وهو في لندن، فآثر أن يكون موته على الأرض التي أحبها وعشقها: أرض مصر الخالدة . وما لبث أن فارق الحياة في ٢٣ يونيو ١٩٧٦م عن عمر يناهز الثامنة والستين وترك زوجته السيدة "سها عبد الحميد الصحن" تبكيه آخر البكاء لحلو صفاته وطيب شمائله.

obeikandl.com